الأصدقاء الثلاثة

مكسيم جوركي

روايات الهلال

روائع القصص العالمي





الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير ٢٠٢٠ **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٢٠٢ * اكتوبر * ١٩٦٥ * جمادى الآخرة ١٣٨٥
No. 202 — Octobre 1965

بيانات ادارية

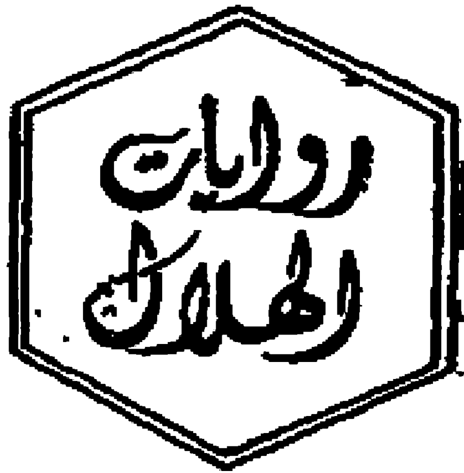
ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان ٨٠ مليما — عن الكميات المرسلة بالطائرة : في سوريا ولبنان ١٠٠ قرش سوري لبناني — في الاردن والعراق ١٠٠ فلس .

قيمة الاشتراك السنوي : (١٢ عددا) في الجمهورية العربية المتحدة ٨٥ قرشا صاغا — في السودان ٨٥ قرشا سودانيا — في سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا لبنانيا — في بلاد اتحاد البريد العربي ١١٠ قروش — في الامريكتين ٥ دولارات — في سائر انحاء العالم ٣٠ شلنا

والاشتراكات تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية — وفي الخارج بتحويل مصرفي على أحد بنوك القاهرة .

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٣٢ آنة ، ليبيا : بنغازي ١٤٠ مليما وطرابلس ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٢٥ فرنكا ، المغرب ١٥٠ فرنكا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)



مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الأصدقاء الثلاثة

بقلم

مكسيم جوركي

شخصيات الرواية

بتروشكا فليمونوف	Petroska Fliminov	: صاحب الحانة
ياكوف	Yakov	: ابن صاحب الحانة
العم ترنتي	Uncle Trenty	: مساعد صاحب الحانة
ايليا لنييف	Ilya Lunyev	: ابن أخى العم ترفتى
بافيل جراشوف	Pavil Grachov	: ابن الحداد سافيـــل جراشوف
العجوز برفشكا	Old Perfishka	: الاسكافى
ماشا برفشكا	Masha Perfeshka	: ابنة الاسكافى
ماتيتزا	Matitza	: احدى بنات الليل
فيرا	Vera	: احدى بنات الهوى
اوليمبيادا	Olimpiada	: احدى بنات الهوى
تانيانا لازينا	Taniana Vlazihna	: زوجة الشرطى كيريك
كيريك اتونوموف	Autonomov	: شرطى
جافريك	Gavrik	: مساعد ايليا فى متجر خردوات
سونيا	Sonya	: أخت جافريك ـ مدرسة



الفصل الأول

البيت العجيب

كان بيت الخمار بتروشكا فليمونوف من أعجب البيوت في مدينة رومونوفسكي الروسية . كان يقع في الحي الشعبي بها ، وكان الناس يعجبون من قدرته على احتمال ذلك العدد الكبير من سكانه . ذلك أن حانة صاحبه كانت تحتل الدورين : الارضي والاول منه .. وكانت تزدحم كل ليلة بالشاربين والسكارى والمعربدين من مختلف الطبقات الشعبية ، وكان البدروم يضم عددا من السكان الفقراء : منهم الاسكافي برفشكا وابنته الصغيرة ماشـــا . ومنهم بنت الهوى ماتيتزا ، المرأة ذات الجسم الضخم والعينين الواسعتين المخيفتين ، ومنهم الغلام بافيل ابن الحداد بافيل جراشوف الذي قتل زوجته بسبب سوء سلوكها ، وأودع السجن مدى الحيـــاة . ومنهم العم الاحدب ترنتي الذي يعمل مساعدا للخمار بتروشكا .. وفي غرفة مجاورة كان يقيم أيليا لنييف — الغلام الذي يعمل بائعا متجولا — وهو ابن أخي الاحدب ترنتي .. وفي احدى هذه الغرفات كان يقيم الزبال العجوز بيريمي الذي مات وقيـــــل ان الخمار بتروشكا والاحدب ترنتي سرقا كل أمواله المدخرة — وتبلغ بضعة آلاف من الروبلات — وهو لا يزال يحتضر

وفي هذا البيت العجيب نشأ الأصدقاء الثلاثة : ايليا لنييف بطل قصتنا هذه ، وبافيل جراشوف ابن الحداد ، وياكوف ابن بتروشكا الخمار ، ثم صديقتهم المشتركة ماشا ابنة الاسكافي برفشكا

عاش هؤلاء الاصدقاء الاربعة منذ طفولتهم في ذلك البيت العجيب

.. وكانوا يرتبطون بتقارب السن ، ويعوامل اليتم والحرمان والفاقة .. ايليا لتييف كان يتيم الابوين .. مات أبوه فى سيبيريا بعد اتهامه بأنه أحرق القرية التى عاش فيها ، وماتت أمه مباشرة . وكان جده ، ناسكا مات فى صومعته بالجبل . وحمله عمه الاحدب ترنتى من قرية كينزنايا الى ذلك البيت العجيب بتلك المدينة وهو لما يبلغ بعد الرابعة من عمره .. وكان ياكوف ابن الخمار - صاحب البيت - يتيم الام ، وكذلك كانت ماشا ابنة الاسكافى السكير برفشكا .. أما بافيل جراشوف ، فقد ماتت أمه على يد أبيه الحداد ، وذهب أبوه ليموت فى سيبيريا

فى هذا البيت العجيب عاش الاصدقاء الاربعة اليتامى المحرومون يلعبون معا ، ويختلفون الى المدرسة - حينا من الوقت فقط - معا .. ويعانون معا قسوة الحياة

ولما شب الاولاد الثلاثة عن الطوق ، اضطر ياكوف الى معاونة أبيه فى عمله بالحانة ، واشتغل بافيل حينا من الزمن مع الاسكافى برفشكا ، ثم هرب منه الى حيث لا يعلم احد ، وذهب ايليا ليعمل فى متجر للاسماك . ولكنه لم يلبث أن عاد ، بعد بضعة أشهر ، مطرودا ، لانه ضبط مساعد صاحب المتجر وهو يسرق ، ولما حاول المساعد ان يضربه ، أمسك بسكين وقرر أن يدافع بها عن نفسه . وفزع منه صاحب المتجر .. وطرده

وعاد ايليا الى بيت بتروشكا .. وقرر أن يشتغل بائعا متجولا ، وهاهو ذا يخرج لاول مرة ، معلقا صندوق تجارته فى رقبته ، يجوب الطرقات من الصباح الى المساء ، متنقلا بأنظاره بين وجوه الناس ، رافعا أنفه الى السماء ، ضاغطا بقبعته حتى أذنيه ، نافخا صدره وهو ينادى على سلعه :

- صابون .. شموع .. دبابيس .. مشابك .. خيط .. وابر!

وكانت الحياة الفائرة حوله تموج بحرارة ، وكان هو يحس بالحرية والرضا بعد ان عاش سجينا فى متجر السمك بضعة أشهر . انه يخوض الزحام فى سوق المدينة حينا ، ويدخل حانة ليستريح ويشرب قدح شاى حينا آخر ، ويعود الى النداء على سلعه فى معظم الاحيان . لقد وجد الحياة على هذا النحو بسيطة ، سهلة ، جميلة .

وان أحلامه أصبحت واضحة وبسيطة أيضا . انه يتخيل نفسه ـ بعد سنوات قليلة ـ صاحب متجر للخردوات .. متجر نظيف محترم يتردد عليه أناس محترمون . وسوف يغدو هو أيضا نظيفا ومحترما ، قوي الجسم ، وسيم الشكل . وسوف يحترمه جيرانه، وترسل اليه البنات نظراتهن المختلسة . وفى المساء ، بعد أن يغلق المتجر ، سوف يجلس فى غرفة نظيفة ، يشرب الشاى ، ويقرأ الكتب والمجلات والصحف . ان كل آماله فى الحياة أن يعيش نظيفا ، فى متجر نظيف ، وفى بيت نظيف ، ومع أناس محترمين لا يسيئون اليه ، ولا يدعونه يسيء اليهم

ولكنه كان يجلس ـ بعد يوم من التعب وقلة الربح ـ فى حانة مطرق الرأس ، محزون السمات ، يتذكر الساعات الطويلة التى أمضاها جائلا فى الطرقات ، رجال الشرطة يطاردونه ويهينونه ، والعملاء يسخرون منه ، والناس يحتقرونه ، وزملاؤه الباعة يشتمونه ويتآمرون عليه . فى هذه اللحظات اليائسة ، كان يشعر باحساسات عميقة تتحرك فى نفسه ، وتملؤها بالقلق والخوف .. انه يرى ببصيرته شيئا من حقيقة الحياة .. يرى بوضوح أن الناس جميعا يتسابقون ويتزاحمون للوصول الى هدف واحد : انهم جميعا يريدون أن يعيشوا حياة مريحة نظيفة ، خالية من القلق والخوف ! ومن أجل الوصول الى هذا الهدف لا يتردد الواحد منهم فى ازاحة كل من يعترض سبيله ، يزيحه بيده ، أو يوقعه على الارض أو يمسك به ليعطله .. كلهم ، من أجل هذا الهدف ، طماعون ، قساة لا يتورعون عن ايذاء غيرهم لاتفه الاسباب ، أو بلا أسباب .. وانما لمجرد ارضاء نزواتهم فقط .. وفى بعض الاحيان يضحكون عندما يوجهون الاهانات الى الغير ، ويسعدون حين يرون غيرهم فى شقاء .. وقليل منهم من يشعر بالرحمة للغير !

كانت هذه الافكار تفقده الشعور بمتعة العمل كبائع جوال ، وتحجب كل اماله فى أن يصبح يوما صاحب متجر خردوات نظيف ! وفى هذه الحالة يشعر بفراغ هائل فى أعماق نفسه ، وبارهاق شديد فى أعضاء جسمه . وكان يخامره الاحساس العميق بأنه لن يظفر قط بالمال الكافى لامتلاك متجر خاص به ، وبأنه سوف يقضى بقية



وهاهو ذا يخرج لاول مرة ، معلقا صندوق تجارته في رقبته يجوب الطرقات من الصباح الى المساء ، متنقلا بأنظاره بين وجوه النـاس . . .

حياته بائعا جوالا ، يمشي بين الناس حاملا صندوق السلع معلقا من رقبته ..

على ان هذه الحالة من اليأس والتشاؤم لا تلبث أن تزول عندما يزداد ربحه في أحد الايام عما كان يتوقع .

وفي ذات يوم لمح في الطريق صديق طفولته ، بافيل جراشوف يسير متمهلا وقد وضع يديه في جيوب سراويله المهلهلة . وكان مرتديا قميصا أزرق فضفاضا ، قذرا ، مهلهلا مثل السراويل .. وكان حذاؤه الكبير الرث يطرقع على بلاط الشارع ، وعلى رأسه قبعة مكسورة الحافة ، وموضوعة بميل على مؤخرة رأسه ، أما عنقه ووجهه فكانا مكسوين بطبقة من القذارة

وتعرف بافيل على ايليا من بعيد وأومأ برأسه . ولكن ايليا أسرع ولحق به ، وقال له :

ـ ما ابهى منظرك يا بافيل ..؟

وضحك بافيل وهو يصافح صديقه بحرارة ، وقال ايليا :

ـ كيف حالك الان ؟..

ـ على احسن حال .! اذا وجدت ما يؤكل .. أكلت . واذا لم أجد ، هززت رأسي ونمت جائعا .. كيف حالك أنت يا ايليا ؟ انني سعيد برؤيتك ..

ـ وأنا أيضا سعيد برؤيتك يا بافيل ، لماذا لا تأتي وتزورنا ؟

ـ الا زلت مقيما في بيت بتروشكا ؟

ـ نعم ..

ـ قال لي ياكوف انك تعمل في متجر للسمك في مكان ما بالمدينة

وسرد عليه ايليا ما حدث بينه وبين صاحب المتجر ومساعده ، فقال بافيل :

ـ أحسنت بالدفاع عن نفسك .. لقد اشتغلت في مطبعة ، ثم طردت بسبب سوء سلوكي ، واشتغلت مع نقاش . ولما شتمني ، شتمته ، فانهال علي بالضرب . وشاركته زوجته في ضربي حتى تعبت أذرعهما . وأخيرا التحقت بالعمل مع سباك نظير ستة روبلات في الشهر . انني الان عائد الى عملي بعد أن فرغت من تناول الغذاء

ـ يبدو انك غير متعجل للعودة !

ـ اللعنة عليهم .. انني مهما بذلت من جهـد في العمـل ، فانه لا ينتهي . لسوف احضر لزيارتكم قريبا ..

ـ ارجوك أن تفعل ..

ـ الا تزالون تشربون الشاى في الأمسيات وتقرءون الروايات ؟

ـ نعم .. وانت ..

ـ اقرأ أحيانا وان كنت نسيت الكتابة ..!

ـ الا زلت تقرض الشعر كعادتك ؟

فضحك بافيل وقال :

ـ احيـــــانا ..

ـ حسنا .. لا تتأخر في زيارتنـــا ، ولا تنس أن تحضر معــك بعض أشعـــــارك ..

ـ سأفعل .. وسأحاول ان أحضر معي زجاجة فودكا

ـ أتشرب الخمر يا بافيل ؟

ـ كثيرا .. طاب يومك ..

وانصرف ايليا وهو يفكر في بافيل .. ولم يستطع أن يفهم لماذا لم يشعر صديقه المهلهل الثياب بالحسد حين رآه وهو مرتد ثوبا نظيفا وحذاء لامعا . بل لقد لاح عليه ـ على بافيل ـ انه لم يلحظ شيئا من هذا ! . وأكثر من هذا لقد أعرب بافيل عن ابتهاجه حين أخبره ايليا عن نجاحه في العمل كبائع متجول ، وعن تحسن أحواله المعيشية أخيرا . ! ترى هل أصبح بافيل لا يهتم كثيرا بما يهتم به النـــاس : الاستقرار .. والنظافة .. والراحة والخلو من القلق والخوف

واحس ايليا بالاضطراب ، وعاد في المساء الى مسكنه وقد خامره اليأس من كل شيء .. لم يعد يفكر في اماله .. ولا في متجـــر الخردوات الذى يتمنى أن يكون ملكه خالصا له ذات يوم

ومضى ـ كعادته كل ليلة ـ الى غرفة ماشا حيث ابريق الشاى على الموقد البترولي ، وكان ايليا يحضر معه الشاى والســكر وبعض الكعك والحلوى والمربى . وكانت ماشا ـ البالغة من العمر أربعة عشر عاما ـ تحب ان تقدم الشاى وملحقاته الى جاريها وصديقيها ياكوف وايليا .. وكانت بدورها قد بدأت تعرف كيف تكسب قوت يومها ، ذلك أن ماتيتزا ـ ابنة الليل ـ علمتها كيف تصنع الازهار

الصناعية من الورق الملون . وفي بعض الاحيان كانت تكسب في اليوم نصف روبل . وكان والدها قد عاد من المستشفى بعد شفائه من التيفوس ، نحيل الجسم ، هزيلا ، شاحب البشرة . وكان يعمل لدى زملائه الاسكافيين نظير دريهمات ينفقها في كل ليلة على الخمر . وهكذا كانت ابنته سيدة نفسها ، وصارت تناديه باسم برنشكا وكأنه غريب عنها

وصار شرب الشاي مع ماشا وياكوف تقليدا بهيجا . في كل ليلة كانوا يشربون كميات كبيرة منه ، ويتبادلون الحديث في جميع الموضوعات التي تهمهم وكان ايليا يسرد عليهم تفاصيل أحداث يومه

ويروح ياكوف الذي كان يقضي كل وقت فراغه في قراءة الكتب يحدثهم عن قراءاته ، أو يسرد عليهم المعارك التي تقع في الحانة ، ثم يشكو من قسوة أبيه عليه . وكان للشاي مذاق ممتع في أفواههم، ولزفيف الابريق على الموقد صوت الموسيقى في اذانهم

واذا كانت الليلة مقمرة ، انسابت حزمة من ضوء القمر عبر النافذة الى غرفة الاصدقاء الثلاثة ، فيخفف من وحشتها ، ومن رطوبتها ، ومن اختفاء الهواء فيها ..

وفي بعض الليالي كان برنشكا ــ والد ماشا ــ يشترك بالجلوس معهم في ركن الغرفة وكانت ابنته تقدم اليه الشاي كأنه زائر غريب . وكان هو يشكرها قائلا :

ــ شكرا ياعزيزتي ماشا ..

ثم يلتفت فجاة اليهم ويردف قائلا :

ــ اللعنة عليكم أيها الصغار ، انكم تعيشون كالسادة الاغنياء ؟!
ويروح يحدثهم عن طفولته الشقية ، وعن أيام الجوع والحرمان التي عاشها ، وعن دهشته من بقائه حتى تلك اللحظة .. ثم ينظر الى آلة الاكرديون التي لا تفارقه ويردف قائلا :

ــ لولا هوايتي للعزف على هذه الالة لما استطعت أن أبقى حيا الى هذه اللحظة . انني أخرج من حانة لادخل في أخرى .. هذه حياتي .. وأنا سعيد بها ، ولا شك أن الله نفض يديه مني لانه يدرك أنه لا جدوى من اصلاح حالي ..

وفي ذات مرة قال له ياكوف :

ـ انك تتحدث يا برتشكا كانك لا تريد شيئا من الحياة ..
ـ من قال هذا ؟ انني أريد دائما كاسا من الخمر ..
ويقول ايليا :
ـ ولكن .. الا تريد شيئا اخر .. شيئا جادا !؟
ـ نعم أريد .. أريد الة أكرديون جديدة . الة تساوى عشرين او خمسة وعشرين روبلا . هذا ما أريده ..
ويرسل ضحكة قصيرة ، ثم يردف قائلا بوجه محزون :
ـ لا يا ولدى .. انني لا أريد حتى هذا ، فلذا كانت الة الاكرديون تساوى شيئا فمن المؤكد انني سابيعها واشرب بثمنها . وثانيا ماذا يكون الامر لو جاءت الالة الجديدة أسـوأ من آلتي القديمة ! ان الاكرديون الذى أملكه لا يقدر بثمن .. ان فيه روحي .. أن فيه صباى وشبابي .. انه رفيق عمرى .. والشيء الجميل ليس جميلا لانه جديد ، وانما لانه محبوب
وكان يحلو لياكوف ان يناقش ايليا وماشا فيما يقرأه من مختلف الكتب . وكان ايليا يضيق بهذه المناقشة ويرى انها تدور حـول أشياء لا يمكن للانسان أن يجد لها تفسيرا .. فمثلا كان ياكوف يبدأ المناقشة بقوله :
ـ ماذا يحدث للروح عندما تنام ؟
ويرد ايليا قائلا فى اضطراب :
ـ ومن أين لى ان أعرف ..؟
ـ أعتقد انها تطير ..
وتقول ماشا وهي تومىء براسها :
ـ لاشك فى هذا ..
ويرد ايليا فى توتر عصبى :
ـ كيف تعرفين هذه الحقيقة ..؟
ـ اعرفها بدون ان أفهمها ..
ويسرع ياكوف الى انقاذها فيرد قائلا :
ـ انها تطير فعلا .. انها تحتاج الى الراحة مثل أجسادنا .. وهذا هو سبب أحلامنا أثناء النوم ..
ويعجز ايليا عن الرد ، فيصمت . وفى خلال السكون المخيم على

الغرفة ، يسمع الجميع ضجيج الحانة في الطابق الاعلى . ويعود ياكوف الى المناقشة قائلا :

ـ ان الانسان يقضي عمره وهو يجري هنا وهناك ... يعمل ويشقى ويكسب المال .. ثم اذا هو في لحظة واحدة .. جثة هامدة .. فما معنى هذا ؟ ما معنى هذا ياايليا ؟

ـ ولكن الصغار يموتون أيضا .. حتى الأطفال .. والاصحاء ! أتعرف السبب ؟

ـ لا ...

ـ ولماذا يعيش الناس ؟

ويغتصب ايليا ضحكة قصيرة ويقول :

ـ انهم يعيشون حبا في الحياة .. انهم يسعون الى النجاح والى الفرصة التى تجعلهم أغنياء تظلهم ...

ـ هذه هى أهداف الفقراء .. ولكن ماذا يريد الاغنياء ؟

ـ أيها الاحمق .. اذا لم يكن هناك أغنياء ، فلمن يعمل الفقراء ؟

ويصمت ياكوف برهة ثم يقول :

ـ اذن فلابد أن نعمل جميعا ...

ـ لا .. لسنا جميعا .. ان بيننا الذين عملوا وادخروا المال ثم .. أصبحوا يعيشون جميعا من أجل العيش فى ذاته ...

ـ انني لا أفهم ؟ ..

ـ الا تفهم ان الحياة هدف في ذاتها ؟ ان الذين لديهم ما يكفيهم ، يحبون أن يعيشوا لمجرد العيش .. حبا فى الحياة ذاتها ...

ثم يردف ايليا قائلا لياكوف بصوت حاد :

ـ وانت .. لماذا تعيش ؟..

ويرد ياكوف قائلا في وداعة :

ـ انني لا أدرى .. ولا يهمنى ان أموت .. حقا سوف أشعر بالفزع . ولكن الامر سيكون مسليا ...

ـ ليس هناك ما يدعو للغضب الى هذا الحد يا ايليا . أترى ... ان الناس خلقوا ليعملوا .. وقد خلق العمل للناس .. وهذا يعنى أن الامر كله كالعجلة الدائرة .. تدور وتدور دون أن تصل الى مكان معين ، فما جدوى هذا كله ؟

وصاح ايليا به قائلا :

ــ كفي .. أنك تدير رأسي بهذا اللغو الذى تقرأه فى الكتب . انك لا تفهم شيئا مما تقرأ ..

ــ ولانك لا تفهم تروح تهذى كالمجنون !

ــ لا .. لست كالمجنون .. انظر الى هذا المصباح مثلا ؟ انه أمامنا ؟ أليس كذلك ؟ اذا اوقدته بعود ثقاب حصلت على نار . وهذا يعنى أن النار موجودة وانما لا تحتاج الا الى هذا العود من الثقاب لاظهارها .. فلماذا لا تراها بدون عود الثقاب ؟

وقالت ماشا بتردد :

ــ لقد كانت النار فى عود الثقاب ..

ــ واين ذهبت يا ماشا ..؟

ــ فى الجو .. فى الهواء ..

ــ ولماذا لا يسخن الهواء مادامت كل هذه النيران تذهب اليه !

وهتف ايليا قائلا باستنكار :

ــ اسمع يا ياكوف .. ان الافكار تختلط فى ذهنك لانك لا تعمل شيئا . كيف تقضى وقتك ؟ تقضيه واقفا وراء منصة الشراب .. أهذا عمل ؟ من المحتمل أن تقضى حياتك كلها واقفا وراء المنصة وكأنك جزء منها . أما اذا جبت الشوارع من الصباح الى المساء مثلى بحثا عن الرزق ، فانك لن تجد وقتا للاستغراق فى مثل هذه الافكار المضطربة .. لسوف تشغل ذهنك بالتفكير فى كيفية الوصول الى حياة نظيفة مستقرة فى هذا العالم ، وفى انتهاز كل فرصة تسنح لك لتحقيق هذا الهدف ، ان رأسك كبيرة لانها تورمت بهذه الافكار المضطربة . اما الافكار البسيطة الواضحة فانها لا تورم الرأس ..

واطرق ياكوف برأسه ، وعقد يديه فى حجره ، واخذ يحرك شفتيه فى حديث صامت .. ولكنه سرعان ما قال :

ــ يقولون ان هناك كتابا علميا .. كتابا عن السحر الاسود .. يشرح كل شىء مبهم فى هذه الحياة . لشد ما أتمنى الظفر به ! ..

وكانت ماشا تقبع فى فراشها وتنتقل بنظراتها فى صمت من وجه أحد الشابين الى الآخر .. ثم اذا هى تتثاءب وتسقط رأسها على الوسادة ، وعندئذ يقول ايليا :

ـ لقد حان وقت النوم ..
واسرع ياكوف قائلا :
ـ انتظرنى .. لسوف اضع الغطاء على ماشا واطفىء المصباح ..
ولكن ايليا يسرع الى الباب فى غير مبالاة .. ويهتف ياكوف قائلا :
ـ انتظرنى أرجوك .. اننى أخشى الصعود الى غرفتى فى الظلام
وصاح ايليا فى سخرية :
ـ يالك من جبان ! اتخاف الظلمة وانت فى السادسة عشرة من عمرك ؟ واننى اكبرك بعامين فقط ومع ذلك لا أطرف بعينى لو رأيت الشيطان نفسه !
ويسرع ياكوف فى صمت ـ الى وضع الغطاء على ماشا ، ثم يطفىء المصباح ، تاركا حزمة صغيرة من ضوء القمر تتسلل الى الغرفة المظلمة الرطبة



الفصل الثانى

إبنـة الليـل

فى يوم من أيام العطلات ، عاد ايليا الى البيت بوجه شـاحب وفم مزموم ، والقى بنفسه على الفراش دون أن يخلع ملابسه . وكان الغضب يجثم على قلبه كأنه ثقل من الحديد البارد . وكان الالم فى عنقه يجعله عاجزاً عن تحريكه ، وكانت كل ذرة فى جسمه تئن بالالم والشعور بالهوان ..

فى ذلك الصباح كان احد رجال الشرطة قد سمح له نظير قطعة من الصابون المعطر ودستة مشابك ، بالبيع داخل حلقة من الملاهى اقيمت بمناسبة يوم العطلة ذاك . وما كاد ايليا أن يتخذ مكانا للبيع حتى أقبل عليه شرطى اخر وضربه على رأسه وركل صندوق بضاعته ونثر ما فيه على الارض . وقال ايليا محتجا وهو يجمع السلع المتناثرة :

ــ ليس من حقك يا سيدى ..

ففتل الشرطى شاربه وقال :

ــ ماذا ؟ ! ...

ــ ليس من حقك أن تضربنى ! ..

فقال الشرطى ، الذى كان برتبة جاويش لمساعده :

ــ احقا ؟ حسنا ؟ قده ياميجونوف الى مركز الشرطة ..

وأمسك به نفس الشرطى الذى ظفر منه بالصابون والمشابك ، واقتاده الى مركز الشرطة حيث احتجز فيه من الصباح الى المساء

ولم يسبق لايليا أن اصطدم برجال الشرطة ، أو أمضى بضع ساعات

فى مركز لهم . ومن ثم امتلأت نفسه بأشد أنواع الغضب والاستنكار

وكان يسمع وهو راقد على هذا النحو ضجيج السكارى وغناؤهم وضحكاتهم المخمورة وشتائمهم المتبادلة ، ثم عراكهم ووقع اللكمات والضربات على وجوههم وصدورهم

وانصت ايليا الى هذا كله فى شىء من الرضى والسرور .. لقـــد كان يتوقع أن ينتهى الغناء والصخب الى الضرب والسب . وقـد أكد ما حدث رأيه فى الناس . ومن ثم عقد يديه تحت رأســـــه وراح يفكر :

لا شك أن جده الراهب أنيبـــا قد ارتكبه اثما كبيرا جعله يعيش ثمانية أعوام ناسكا فى صومعة فوق الجبل .. يصلى لله ولا يكلم مخلوقا من البشر . ومع ذلك فقد غفر الناس له ذلك الاثم الـــكبير واطلقوا عليه لقب « القديس » على ان هذا لم يمنعهم من أن يظلموا ابنه ويتهموه بأنه أشعل النار فى القرية ، ثم نفوه الى سيبيريا .. ثم طردوا ابنه الثانى ، الاحدب ترنتى ، وحفيده ايليا من القرية ..

وضحك ايليا بعد أن أفاق من تفكيره ..ضحك وهو يشعر بكراهيته للناس تتلوى فى أعماق نفسـه كالافعى الباردة . واخذ يتخيل صورا مختلفة من الناس الذين تملأ الكراهية قلبه لهم ..

ونهض ايليا وغادر غرفته الى الجزء الامامى من الفناء ، كان يهفو لان يذهب الى أى مكان ، ولكن الساعة كانت متأخرة ، وقـــد نامت ماشا ، ولزم ياكوف الفراش لصداع فى رأسه . ولم يشأ ايليا أن يزوره لان أباه الخمار بتروشكا ، لم يكن يحب ايليا أو يحب أن يراه بالقرب من الحانة ..

وكانت رياح الخريف الباردة تهب ، والظلام كثيفة بحيث لم تكن السماء مرئية وكانت البيوت الاخرى تبدو كأنها رقع من الظلام تعبث بها الرياح . وارتفع صوت باب يفتح .. ثم ينصفق ..ثم همهمة فى الهواء الرطيب البارد كأنها همهمة أحزان البشر . وصــــدمت الرياح صدر ايليا ، وصفعت وجهه واندست فى ملابسـه ، وسرت فى بدنه رعدة وقال لنفسـه : انه لن يستطيع أن يستمر فى الحيـــاة على هذا النحو .. ان عليه أن يهرب الى مكان آخر .. ليس فيه هــذا الظلام .. وهذه القذارة .. وهذا الفقر . وانما فيه النظـــافة .

والاستقرار .. والطهر ..

وسمع صوتا متحشرجا ينساب في الظلام يقول :

ــ من هناك .. ؟

ــ ومن المتحدث ؟

ــ أنا ماتيتزا ..

ــ وأين انت ؟ !

ــ جالسة على كومة الخشب في الفناء

ــ لماذا ؟

ــ لا لشيء ..

وخيم الصمت . وشعر ايليا بالعطف على هذه الفتاة التي تلتقط رزقها ببيع جسدها لكل من يريد .. وعاد الصوت يقول :

ــ ان اليوم هو نفس اليوم الذي ماتت فيه أمي منذ عشر سنوات .

ــ كم كان عمرك يومذاك .. ؟

ــ السابعة عشرة . هل أمك على قيد الحياة يا ايليا ؟

ــ لا .. ماذا بك .

ــ ساقي تؤلمني .. لقد دلكتها بأنواع مختلفة من الزيوت على غير جدوى

وفتح شخص ما باب الحانة .. واندفعت شحنة من الاصوات الى الخارج ، ولكن الرياح تشرتها في كل مكان مظلم .

وعادت ماتيتزا ، ابنة الليل ، تقول :

ــ لماذا أنت جالس هكذا في الفناء يا ايليا ؟

ــ لا لشيء .. أشعر بالملل ..

ــ مثلي .. ان غرفتي تشبه التابوت ..

ثم سمعها تتنفس بعمق وتردف قائلة :

ــ تعال معي الى غرفتي يا ايليا ..

ونظر ايليا الى الاتجاه الذي يأتي منه الصوت ، ثم قال بلا مبالاة :

ــ حسنا .. هلم ..

وهبطت ماتيتزا من كومة الخشب ، وتقدمته الى باب البيت ، وهبطت الدرجات القليلة الى غرفتها بالبدروم ، وكانت تعرج بساقها المريضة ، وتبعها ايليا بلا تفكير وهو يشعر بتعاسة في نفسه كما يحزا

الالم في ساق ما تيتزا ...

وكانت غرفتها طويلة ، ضيقة ، خفيضة السقف ، تشبه التابوت حقا . وبجوار الباب كان ثمة موقد مشـــيد في الجدار بالآجر ، وفي الجانب المواجه سرير عريض بجواره منضـــدة ومقعد ، وبالقرب من النافذة مقعد اخر .. وكان ضجيج الحانة أكثر وضوحا في هـــذه الغرفة منه في الغرفات الاخرى

وجلس ايليا على المقعد بجوار النافذة ، وتلفت حوله ، ثم قال وهو يشير الى صورة قديسة معلقة بالجدار :

ـ صورة من هذه ؟ ..

ـ القديسة حنة ..

ـ وما اسمك أنت ؟

ـ حنة ايضا .. ألم تكن تعرف ؟

ـ لا ..

وتراخت في فراشها متهالكة . وراح ايليا يرمقها دون أن يشـــعر بأية رغبة في مواصلة الحديث ، وآثرت هي أيضا الصمت .. ومضت لحظات بدا أن كلا منهما لا يشعر بوجود الاخر .

وقالت الفتاة أخيرا :

ـ حسنا .. ماذا سنفعل ؟

ـ لا أدري ..

فأرسلت ضحكة لها دلالتها وقالت :

ـ احقا ؟ ماذا لو دفعت لي الاجر مقدما ؟ اشتر لي زجاجة بيرة .. لا بل اشتر لي شيئا يؤكل .. انني أكاد أموت جوعا

ثم اردفت قائلة في شبه اعتذار :

ـ انني لم أستطع الخروج منذ يومين بسبب ساقي .. ولم آكل شيئا خلال هذين اليومين . أقسم لك على هذا

ورمقها ايليا برهة في عطف ورثاء ، ثم قال وهو ينهض :

ـ لسوف أحضر لك طعاما ..

واسرع الى الحانة ، ووقف بباب المطبخ حيث اشترى من الطاهي كمية كبيرة من مخلفات الموائد .. خبز ولحم وجبن ، وحملهـــا في صحفة الى ماتيتزا . وبعد أن التهمت الفتاة الطعام بشراهة ، قالت

وهي تضع الصحفة بعيداً :

ـ حمداً لله .. ما أبسط الاشياء التي تحول تعاسة الانسان الى سعادة !

ونظر ايليا اليها في صمت .. وقالت الفتاة وهي تتنهد :

ـ بقدر حاجة الانسان الى شيء ، يجب ان يدفع الثمن !

ـ ماذا تقصدين يا ماتيتزا .. ؟

ـ أعني ان على الانسان أن يدفع الثمن الذى يتناسب مع حاجته الى شيء ما ..

ـ يدفعه لمن ؟ ...

ـ لله ...

ولم يقل ايليا شيئاً ، وانما تعجب في نفسه من هذه الفتاة التى لا تكف عن ترديد اسم الله وهي تكسب قوت يومها ببيع جسدها ..

وعادت هى تقول :

ـ أتعرف فيم كنت أفكر وانا التهم الطعام ؟ كنت أفكر في الفتاة ماشا .. ابنة الاسكافي برفشكا . انها تعيش هنا .. معك ومع باكوف . وسوف ينتهي أمرها الى أن تكون مثلي .. تخرج في الطرقات لتبحث عن الطعام بالثمن الباهظ .. ان الناس يسيرون في الطرقات ، أما نحن ، فاننا نزحف فيها على بطوننا

وبعد برهة من الصمت عادت تقول :

ـ لسوف تكبر ماشا وتبلغ مرحلة الانوثة بعد عام أو عامين ، وقد حاولت أن أبحث لها عن عمل شريف ، ولكنني لم أنجح .. انها لا تحسن القيام بعمل يحميها من آثام الناس .. ان الذين أسألهم عملا لها يقولون لي .. عليك ببيعها .. ان هذا أفضل مصير لها .. يجب أن تباع ماشا لرجل عجوز حتى تضمن طعامها وثيابها وسقفاً يحميها من الشارع

ثم أخفت ماتيتزا رأسها بين يديها ، وتمتمت قائلة :

ـ يا الهى .. يا الهى رحمتك ..

وقال ايليا في ضيق شديد :

ـ كيف ترددين اسم الله دائماً وأنت غارقة في هذه الحياة الاثمة ؟

فنظرت ماتيتزا اليه برهة في صمت ، ثم هزت رأسها وقالت :

ـ انني لا أفهمك ! ..

فنهض قائلا :

ـ ان كلامي واضح جدا .. انك بغي .. ومع ذلك لا تكفين عن ترديد اسم الله . اذا كنت مؤمنة بالله حقا ، فلماذا تعيشين كبغي ؟

فهتفت الفتاة قائلة في احتجاج :

ـ آوه .. ماهذا الذي تقول ؟ اننا ، معشر الآثمين ، أحوج الى الله من غيرنا ..

فهز ايليا كتفيه وقال :

ـ هذا هو القناع الذي يضعـه الناس على أعينهم ليحجبوا الحقيقة .. أنهم يغالطون أنفسهم .. ان كل انسان يشكو ويتأوه ، ومع ذلك يظل سادرا في غيه . انهم يخدعون بعضهم البعض .. يهملون في واجباتهم .. يسرقون .. يحتالون .. يأثمون ، ثم يفزعون الى الله لينقذهم .. ليشملهم برحمته .. انني أعرف الحقيقـة . أعرف أن الناس جميعا مخادعون .. يخدعون أنفسهم ويحاولون خداع ربهم !

وحملقت ماتيتزا في وجهه بفم مفتوح وقد امتلأت عيناها بالدهشة وأسرع ايليا الى الباب ففتحه بعنف ، ثم خرج وصفقه وراءه . وكان يعلم أنه جرح ماتيتزا في مشاعرها وآلمها أشد الالم . الا أنه شعر بالرضى والغبطة ، وأحس أنه أسعد حالا مما كان قبل ذلك بلحظات

وبدأ بعد ذلك يتصل بالنساء ..

وكانت مغامرته الاولى معهن على النحو التالي . كان يسير عائدا الى البيت حين اعترضته احدى بنات الليل قائلة :

ـ تعال معي يا فتى ..

فنظر اليها وتلفت حوله ثم سار بجانبها دون أن يقول شيئا . الا أنه ظل مطرق الرأس متلفتا حوله كأنما يخشى أن يراه أحد يعرفه .. وقالت الفتاة بعد أن سارا قليلا :

ـ ان أجرى روبل ..

فرد ايليا قائلا :

ـ حسنا .. هلم أسرعي ..

وسارا في صمت الى مسكن الفتاة ..

وكلفته هذه المرحلة الجديدة من حياته مالا كثيرا . وكذلك جعلته يفكر دائما في أن تجارته الضئيلة هذه لن تتيح له يوما تحقيق هدفه في حياة نظيفة مستقرة . وخطر له ذات مرة أن يخدع عملاءه ببيع سلعه عن طريق اليانصيب ، ولكنه رأى أن هذا الامر لا يستحق التعب ، فقد كان عليه في هذه الحالة أن يهرب من رجال الشرطة أو يرضيهم ويرشوهم ، وهو لا يرضى لنفسه هذا الوضع . انه يريد أن يعيش مرفوع الرأس بين الناس . وكثيرا ما شعر بالسرور كلما تذكر أنه يرتدى من الملابس أحسن كثيرا مما يرتديه غيره من الباعة الجائلين ، وانه لا يشرب الخمر أو يحتال على الغير . ولهذا كان يجوب الطرقات بخطوات متزنة وبسمت وقور وبوجه ينم عن الجد ، يتحدث قليلا ويزن كلماته ، وينظر بعينيه السوداوين الواسعتين باحترام الى العملاء . وكثيرا ما تخيل روعة الحياة لو أنه ظفر فجأة بمبلغ ضخم من المال — الف روبل أو أكثر مثلا .. وكانت حوادث السرقة تثير اهتمامه الى حد كبير ، ومن ثم كان يشترى الصحف ليقراها .. وكلما قرأ عن وقوع سارق في قبضة رجال الشرطة ، قال لنفسه :

« انه جدير بما سيناله من عقاب .. لماذا يقوم بعمل لا يتقنه ؟ »

وفى ذات مرة قال لصديقه ياكوف :

— ان اللصوص يعيشون حياة أفضل من الشرفاء ..

وشحب وجه ياكوف وضاقت عيناه ثم قال :

— كان عمك يشرب الشاى في الحانة أول أمس مع رجل عجوز — رجل من الورعين الاتقياء . وقد سمعت ذلك الرجل الورع يقول لعمك انه مكتوب في التوراة والانجيل أن أموال اللصوص تكثر وأن الخطاة في أمان ..

فقال ايليا الذى كان ينصت باهتمام :

— هل انت واثق مما سمعته ؟ ..

— نعم .. هذه هي كلماته . وقد قال انها وردت في نص الكتاب المقدس . والدليل على ذلك أن حالة أبى تزدهر رغم ما يرتكبه من معاصي وخطايا ..

فقال ايليا :

— أليس ابوك عادلا ؟ ..

فقال ياكوف وهو يتنهد بعمق ويطرق برأسه :

ـ انه أبعد الناس عن العدالة • والعجيب أنه انتخب عضـــوا في مجلس المدينة ، لست أدري لماذا لا تتجسم خطايا الانســـــان أمام ضميره واضحة مثل البيضة ـ أوه •• انني ســـــقيم من كل شيء •• انني لا أفهم شيئا مما يجري حولي . انني لست صالحا للبقـــــاء على قيد الحياة • انني أكره الحانة • وأبي لا يكف عن تأنيبي ودفعي الى العمل والوقوف وراء منصة الشراب عندما يكون عمك غائبـــا . انني أكره هذا العمل •• بل أكره أي نوع من الاعمال الاخرى

ـ اذن يجب أن تستكمل دراستك ••

ـ ان الحياة قاسية •• !

فهتف ايليا قائلا وهو يثب من الفراش ويمضي الى النــــافذة التي وقف عندها ياكوف :

ـ قاسية بالنسبة لك ؟ انك مجنون ! اذن ماذا أقول أنا ؟ أنا الذي لا أملك شيئا في الحياة ؟ لسوف تمتلك البيت والحانة عندما يشيخ والدك • سوف تكون السيد هنا ! أما أنا •• ماذا سيكون مصيري ؟ انني أسير أمام واجهات المتاجر وأرى الملابس والقمصان والصـــداري والساعات دون أن أتمكن من شراء شيء انني لن أستمتع يوما بامتلاك ساعة مثلا • وأنا أتمنى أن يكون لي أشياء جميلة تجعل الناس ينظرون الى باعجاب ؟ انني لست أقل شأنا منهم •• لست أسوأ أخلاقا منهم •• بل انني أفضل من الكثيرين •• ان اللصوص يملأون المدينـــة ، ومنهم من ينتخب عضوا في مجلسها ويمتلك حانة •• لـــماذا يكون للصوص كل هذا الحظ ؟ انني أريد أن يكون لي نصيب منه

ونظر ياكوف مليا الى وجه صاحبه ثم قال بوضوح تام :

ـ اسأل الله ألا يتحقق لك هذا ••

فهتف ايليا قائلا في اهتياج :

ـ لماذا لا ؟ ! ••

ـ لانك جشع •• والرجل الجشع لا يقنع بشيء ••

فأرسل ايليا ضحكة جافة وقال :

ـ لا شيء يقنعني ! •• اذن أطلب من أبيك أن يعطيني نصف ما

سرقه هو وعمي من العجوز ميريمي وأنا اقتنع ..

فأسرع ياكوف نحو باب الغرفة .. ولكن ايليا امسك بذراعه وقال في قلق :

ـ انتظر .. الى أين أنت ذاهب ؟

فهمس ياكوف قائلا في حدة :

ـ دعني وشأني ..

ـ أرجوك ان تنتظر .. لا تغضب مني .. فتلك هي الحقيقة ..

ـ انني أعرف ..

ـ أتعرف .. من قال لك ؟ ..

ـ ان الناس جميعا يتحدثون عن هذا الامر ..

ـ هه ! ان الذين يتحدثون عن هذه السرقة ليسوا احسن حالا ..

وأرسل ياكوف نظرة توسل الى ايليا ثم قال :

ـ لم أستطع أن أصدقهم في أول الامر .. ظننت أنهم يقولون عن أبي هذا كله بدافع الحسد . ولكنني بدأت تدريجيا أصدقهم . واذا كنت أنت أيضا ..

ثم لوح بيده ، وتهالك على أقرب كرسي اليه ، وجلس ايليا على حافة الفراش مطرق الرأس لا يدري كيف يواسي صاحبه . وعاد ياكوف يقول معاتبا :

ـ اذن فأنت تحسبه حياتي خالية من المتاعب !

فقال ايليا ببطء :

ـ ليس هناك من تخلو حياته من المتاعب . ولكن العزاء الوحيد أن الانسان يرى الشر والسوء في كل مكان ينظر اليه ..

وبدون أن يرفع ياكوف عينيه قال مترددا :

ـ هل أنت واثق .. واثق مما تقول عن أبي ؟ ..

ـ نعم .. لقد اختلست النظر اليهما من ثقب الباب عندما دخلا على العجوز ميريمي وهو يحتضر .. رأيتهما وهما يشقان الحشية ويدسان المال في جيوبهما ، ثم يخيطانها كما كانت .. وكانت أنفاس العجوز ميريمي لا تزال تتردد

ـ اذن فقد رأى قبل أن يموت ، أمواله التي ادخرها من بيع القمامة

وهى تسرق ..

ـ لا شك فى ذلك ..

ونهض ياكوف متهدل الكتفين ، ومضى الى الباب قائلا :

ـ طاب مساؤك .. .

ـ لا داعي لان تحزن كل هذا الحزن يا ياكوف ..

وشعر ايليا بعد انصراف ياكوف ، بالالم يعتصر قلبه ، وبالغضب الشديد من عمه ومن بتروشكا الخمار ، ومن جميع أمثالهما .. ان شابا مثل ياكوف لا يستطيع أن يعيش بين أمثال هؤلاء الناس . انه طيب القلب .. نظيف .. عطوف . وان ايليا ليذكر تجاربه مع الناس ، وانه من ثم ليجد أنها كافية لانحرافهم جميعا فى بحـــار القسوة والاثم والانانية والخداع ..

ولما ضاق صدره ، نهض وغادر البيت الى الطرقات .. وظل يسير من شارع الى اخر وهو عاجز عن التخلص من هذه الافــكار السوداء التي كانت تملأ نفسه بالحزن والشعور بالغثيان . لابد أن هنـــاك شيئا طيبا فى هذه الحياة .. ليس من المعقول أن يكون الناس جميعا أشرارا خاطئين .. لابد أن هناك أناسا طيبين ، وتصرفات طيبة وألوانا طيبة من المباهج والمسرات ، فلماذا لم يتصل بهؤلاء الناس .. لماذا لم ير فى حياته الا الاشرار والاثمين ؟ ما نوع هذه القوة التى تدفع به دائما الى طريق الظلمات والشرور والاثام !

ولما وجد نفسه خارج المدينة وهو غارق فى أفكاره هـــذه ، تلفت حوله ، وشعر بالخوف يملأ نفسه فجأة .. الخوف من الظلام .. والوحدة والمكان الموحش .. ودفعه هذا الخوف الى الجرى .. الجرى نحو البيت دون أن يجرؤ على مجرد النظر الى الوراء ..



الفصل الثالث

الغرام الاول

بعد أيام قليلة التقى ايليا بـافيل جراشوف . وكان الوقت مساء ، وندف من الثلج تتأرجح في الهواء البارد ببطء ، وتتألق في الاضواء المنسابة من مصابيح الشارع . وكان بافيل لا يرتدي — رغم الجو البارد — غير صديرية من القطن وسراويل مشدودة الى خصره بحزام جلدي . وكان يسير متمهلا ، متهدل الكتفين ، عيناه على الارض ، ويداه في جيوب سراويله ... فلما لحق به ايليا وتحدث اليه، رفع بافيل عينيه ونظر في وجه صاحبه ثم غمغم في غير مبالاة :

— هه ! ...

وقال ايليا وهو يسير بجواره :

— كيف حالك يا بافيل ؟ ...

— لا يمكن أن يكون أسوأ ... كيف حالك أنت ؟

— لا بأس ..

— لا شيء يمكن أن تزهو به ... كما أرى ..

وبعد أن سارا في صمت بضع خطوات ، قال ايليا :

— لماذا لا تأتي وتزورنا ؟

— ليس لدي وقت ... انني لا أكاد أجد وقت فراغ كما ترى ..

فرد عليه ايليا بلهجة عتاب قائلا :

— يمكنك أن تدبر وقت فراغ اذا أردت ..

— لا داعي للعتاب .. انك تريد مني أن آتي وأزوركم . ولكنك لم تفكر يوما في الحضور لزيارتي .. بل انك لم تسألني عن مكان اقامتي ..

فابتسم ايليا وقال معتذرا :

ـ نعم ... هذا حق ...

ـ انني أعيش بمفردي .. بلا أصدقاء ... لا أرى أحدا يهمه امرى . انني كنت مريضا وأمضيت في المستشفى ثلاثة أشهر لم يزرني خلالها أحد

ـ مم كنت تشكو ؟...

ـ أصبت بنزلة برد وأنا سكران .. ثم أصبت بالتيفود . ولكن الآلام الشديدة أحسست بها وأنا في دور النقاهة ... كنت أمضي الأيام الطوال راقدا بمفردي حتى خيل الى أنني أصبت بالصمم والبكم والعمى ، أو كأني ملقى في حفرة كأي جرو لا حاجة لأحد اليه . ولولا الكتب التي كان الطبيب يأتيني بها لأقرأها ، لمت كمدا

ـ أكانت كتبا جيدة ؟ ...

ـ دواوين شعر ... لرمنتوف . ونكرشوف . وبوشكين . وكانت بعض قصائدها تجعلني أحس كأني أقبل على الفتاة التي أحبها ، وبعضها الآخر يقدح في قلبي شرارة من النار والوهج

وتنهد ايليا قائلا :

ـ لقد فقدت هوايتي للقراءة .. ان مايقرأه الانسان شيء، ومايراه في الحياة شيء آخر ..

وتوقف بافيل أمام مشرب وقال :

ـ هلم نجلس هنا قليلا .. انني على موعد ، ولكنه لم يأزف بعد..

ودخلا معا .. وقال بافيل وهو يرمق صاحبه باسما :

ـ اننا لم نكن صديقين حميمين يا ايليا .. كنا دائما على خلاف ولكنني أشعر بالسرور كلما رأيتك ..

ـ وهذا هو نفس شعوري يا بافيل ..

وجلسنا الى أقرب مائدة .. وبعد برهة من الصمت قال ايليا :

ـ اين تعمل الآن ؟ ..

ـ عدت للعمل في المطبعة ..

ـ أهو عمل شاق ؟..

ـ ليس العمل شاقا .. ولكنه الشعور بالقلق ..

واحس ايليا بشيء من الرضى وهو يرى صديقه الذي كان دائم

الابتهاج ، لا يبالي شيئا ، محزونا مكتئب السحاب . وتساءل في نفسه عن سر هذا التحول

وقال :

ــ الا زلت تكتب شعرا ؟ ..

ــ ليس الان .. ولكنني كتبت كثيرا في المستشفى . وقد أعجب به الطبيب وقرظه ، بل لقد سعى الى نشر قصيدة لي في احدى الصحف

فهتف ايليا قائلا :

ــ اه ... ! أي نوع من الشعر تنظم .. اسمعني بعضا منه

فنظر بافيل الى قدح البيرة أمامه ثم قال :

ــ انني لا أتذكر شيئا كثيرا .. آه .. انتظر ... انني أشعر احيانا كأن خلية من النحل تطن في رأسي ... وتسري البرودة في جسمي .. وأشعر كأني سأنفجر .. وتنهمر الدموع من عيني .. وأتمنى لو استطعت ان اقول ما يختلج في أعماق نفسي ، ولكنني أعجز .. ان في أعماق نفسي أشياء كثيرة ورائعة ... ولكنني أعجز عن نقلها الى الورق ..

فقال ايليا بلهفة :

ــ أرجوك أن تسمعني شيئا ..

ــ انها قصائد بسيطة .. كلها عن نفسي ...

ثم تلفت حوله وبدأ يلقي بعضا منها على مسامع ايليا قائلا :

الليل .. واليأس .. ومن خلال الزجاج المغبر ....

يسطع قمر مريض على درب قذر ..

ويلقي شعاعه على ارض موحلة ..

وفوق جدران رطيبة ..

ويرسم الظلال السوداء على باب ..

يؤدي الى قاعة مهجورة باردة ...

أجلس فيها وحيدا .. صامتا .. عاجزا عن النوم ...

وصمت بافيل برهة قبل أن يستطرد قائلا :

انني مختنق بالحياة .. مسحوق .. مضروب ..

طعنة في قلبي مرة .. وضربة على ظهري أخرى ..

وحتى الأمل الوحيد الذى داعبنى .. تحطم ..
ولم يبق لى فى الحياة غير كأس شراب ..
تلمع بخفوت فى ضوء القمر ..
وتبتسم كصديقة وانا امد اليها يدى ..
حسنا .. لاضمد جراحى بالشراب ..
لاغلف به عقلى .. لاطرد به آلامى ..
وفى اعماق الغيبوبة انعم بالراحة ..
فلماذا لا اشرب كأسا اخرى !..
ليمتنع عن الشراب القادرون على النوم ..
أما أنا .. فانى مدفوع اليه بالألم ..
ولما فرغ من الالقاء ، نظر فى رفق الى ايليا وقال له :
ــ معظم قصائدى على هذا النحو ..
وظل ايليا يحملق اليه فى دهشة الذى لا يكاد يصدق اذنيه ..
واخيرا تمتم قائلا بذهول :
ــ ان هذا عجيب يا بافيل .. لقد جعلتنى اشعر بالرغبة فى البكاء .. اسمعنى هذه القصيدة مرة اخرى
ورفع بافيل رأسه بسرعة ونظر بابتهاج الى صاحبه ثم قال :
ــ اعجبتك حقا ؟ ..
ــ جدا .. لا داعى لان أكذب عليك ..
ولما أعاد القاءها ، قال له ايليا :
ــ اسمعنى قصيدة أخرى ..
فقال بافيل :
ان قدمى ثقيلتان ..
ورأسى مطرق ..
باليأس والحزن ..
فالى أين المسير ؟..
يا أرض بلادى ..
انيرى لى الطريق ..
فانى وقعت على الارض ..
تحت شجرة وارفة ..

وضغطت بخدى على الثرى ..

وسمعت بقلبى الواهن هذا النداء

تعال الى ! ..

وصمت بافيل فجأة ، ثم قال لايليا :

ــ ايليا .. تعال معى . اننى لا أريد الافتراق عنك الان .. لا يزال امامنا متسع من الوقت

ونهض ايليا ، وسار مع صاحبه فى طرق ملتوية مظلمة . ولما طال السرى ، قال له ايليا متسائلا :

ــ الى بيت سيدوريكا .. أتعرفها ..

فضحك ايليا وقال :

ــ نعم .. اننا جميعا سرنا فى مثل هذه الطرقات

فقال بافيل فى رفق :

ــ نعم .. نعم .. ولكننى ذاهب الى هناك لسبب آخر .. سبب لا اعرف كيف اذكره لك . حسنا .. أن لى صديقة فى هذا البيت .. انتظر حتى تراها .. لسوف تحس كأنك فى الجنة وانت معها .. كانت خادمة فى بيت الطبيب الذى اهتم بأمرى وانا فى المستشفى . واعتدت أن أذهب الى بيته لاستعير منه بعض الكتب وأرد الكتب الاخرى التى فرغت من قراءتها . وكانت فيرا ــ خادمة الطبيب ــ تستقبلنى بحرارة وتضحك فى وجهى ، وتقبلنى .. لقد سلمت لى نفسها بلا أدنى تردد .. وكثيرا ما كنا نمضى الساعات نطارح الغرام الملتهب فى غرفة الاستقبال . وفاجأتنا زوجة الطبيب ذات يوم ، وجن جنونها ، وطردت فيرا من البيت فورا ، فأخذتها لتعيش معى . ولكننى كنت متعطلا .. ولما بعت كل شىء للحصول على لقمة العيش ، هربت فيرا واختفت اسبوعين ، ثم عادت متألقة بملابس فاخرة وحلى ثمينة

ــ وضربتها .. ضربتها بقسوة حتى كادت تموت بين يدى ..

ــ وهل هجرتك بعد ذلك ؟ ..

ــ لا .. لو انها هجرتنى لقتلت نفسى .. اما هى فقد قالت لى : « اما أن تقتلنى وتريحنى أو تكف عن ضربى .. اننى وهبتك قلبى .. ولن أهبه لاحد غيرك مهما حدث »

— وماذا فعلت ؟..

— فعلت كل شيء لأمنعها من السير في هذا الطريق .. ضربتها .. حاولت اقناعها ، بينت لها النهاية المؤلمة التي سوف تنتظرنا .. ولكن .. ما جدوى هذا كله ما دمت عاجزا عن اعالتها

— اليست راغبة في العمل ؟..

— لا .. تقول انها لو عملت وتزوجنا فسيكون لنا أبناء .. فمن يعولهم ؟ انها تفضل هذه الحياة السهلة على العمل والزواج وانجاب الابنـــاء ...

ففكر ايليا برهة ثم قال :

— هذه وجهة نظرها على كل حال ..

وصمت بافيل برهة ، ثم توقف وامسك بذراع صاحبه وقال وهو يقرض أسنانه :

— كلما تذكرت أن شخصا اخر يقبلها احس كأن .. كأن قضيبا من الحديد المنصهر ينفذ في قلبي ..

— ألا تستطيع الانفصال عنها ..

فصاح بافيل منفعلا :

— ماذا ؟ انفصل عنها ؟..

وأدرك ايليا سر انفعال بافيل وهو ينطق بهذه الكلمات حين رأى الفتـــاة ! ..

لقد وصلا الى منزل من طابق واحد في أطراف المدينـــة ، كانت نوافذه الست محكمة الاغلاق ، مما جعله يبدو وكأنه مخزن مستطيل للمحصولات . وكانت الثلوج تتراكم عليه شيئا فشيئا كأنما تحاول أن تخفيه عن الانظار

وقال بافيل وهو يطرق الباب :

— انه منزل من طراز خاص . وان سيدوريكا تسمح باقامة هؤلاء الفتيات لديها مقابل خمسين روبلا تدفعها الواحدة في الشهر . وعدد الفتيات المقيمـات أربع فقط .. وصـاحبة البيت تبيع — طبعا — المشروبات والمأكولات للعملاء الذين يترددون على الفتيـات . وهي لا تشدد رقابتها على نزيلاتها ، وانما تتركهن يخرجن ويأتين كيفما يرغبن . ان كل ما يهمها هو مبلغ الخمسين روبلا الذي تدفعه الفتاة

كل شهر . والفتيات محبوبات جدا من الرجال ، وفي مقدور كل منهن أن تحصل على مبلغ عشرين روبلا فى الليلة اذا شاءت . بل ان اولمبيادا ــ احداهن ــ تستطيع أن تحصل على ضعف هذا المبلغ

وقال ايليا وهو ينفض الثلوج عن ملابسه :

ــ وما هو أجر صاحبتك .. ؟

فهز بافيل رأسه وقال :

ــ لا أدرى .. ولكن أجرها مرتفع ايضا ..

وسمع الاثنان صوتا من وراء الباب يقول هامسا :

ــ من الطارق ؟ ..

ــ انني بافيل ياسيدوريكا ..

وفتح الباب وظهرت سيدة فى منتصف العمر ، كبيرة الانف مكتنزة الوجه ، قالت لبافيل وهى ترفع سراجها الى وجهه :

ــ طاب مسلوك يا بافيل .. ان فيرا تنتظرك بفارغ الصبر .. من معك ؟

ــ صديق ..

ــ وسمع ايليا صوتا نسائيا صافيا يأتى من نهاية الممر الطويل :

ــ من هذا ؟!..

فقالت صاحبة البيت :

ــ انهما ضيفان لفيرا يا اولمبيادا ..

وقالت صاحبة الصوت النسائى الصافى :

ــ ضيفان لك يا فيرا ..

وفتح باب فى الجانب الآخر من طرف الممر ، وظهرت فى بؤرة الضوء فتاة دقيقة الجسم بيضاء البشرة والثوب . ينسدل شعرها الذهبى الناعم على كتفيها

وقالت بصوت عاتب لبافيل :

ــ لقد تأخرت كثيرا ..

ثم وضعت ذراعيها على كتفيه وشبت على أطراف قدميها لتنظر الى ايليا الواقف وراءه ، وهنا قال بافيل :

ــ انه صديقى ايليا لنييف

ــ أهلا وسهلا ..

وتناول ايليا اليد الممتدة اليه ، ونظر باعجاب شديد الى الفتاة وقد بهره جمالها الفاتن . ولما افسحت له الطريق ليدخل غرفتها، قال وهو ينحنى باحترام :

ـ تفضلى بالدخول أولا ..

فأرسلت ضحكة قصيرة رنانة بالبهجة والصفاء وقالت :

ـ يالك من شاب لبق مهذب ..

وضحك بافيل بدوره وقال :

ـ لقد أذهلته بجمالك يا فيرا .. أنظرى كيف وقف متسمرا فى مكانه مثل الدب أمام زنبيل من الشهد

فقالت وهى تبتسم لايليا :

ـ أحقا ؟ ..

ورد ايليا على ابتسامتها بمثلها قائلا :

ـ نعم .. لقد أذهلتنى بروعة جمالك ..

وضحك بافيل عاليا وقد برقت عيناه زهوا ثم قال محذرا فى دعابة :

ـ حاول أن تقع فى غرامها وأنا أقطع رقبتك ..

وكان سعيدا حين رأى ايليا مذهولا بجمال صاحبته فيرا ، كانت هذه جميلة حقا .. دقيقة الملامح ، ممتلئة الشفتين ، واسعة العينين ، ذهبية الشعر ، باسمة السمت ، رشيقة القوام ، لا ترتدى غير غلالة حريرية بيضاء لا تكاد تخفى شيئا من جسمها الممشوق

ولم يستطع ايليا أن يحول نظراته عنها وهى تتحرك برشاقة داخل الغرفة لتعد الشاى والحلوى دون ان تكف عن الثرثرة بمرح والنظر الى بافيل فى حب وشغف

وكانت الغرفة صغيرة انيقة ، كل شىء فيهما نظيف ومرتب .. المتكأ .. والمقاعد .. والفراش ، والمائدة المستديرة فى الوسط ، والحشايا الانيقة على الارض فوق سجادة من الصوف السميك ، ثم أدوات الشاى الخزفية الفاخرة ، والاطباق .. واخيرا الحلوى والشطائر والخبز والشراب ..

ولم يستطع ايليا أن يملك نفسه من الشعور بالحسد لبافيل الذى كان جالسا الى المائدة مشرق الوجه بالسعادة ، يردد كلمات عذبة :

ــ انني اشعر كانى أسبح فى ضوء الشمس عندما أجلس معـــك يا فيرا • ان آلامي وأحزاني تتلاشى ، وتتجدد آمالى وأحلامى • ان جمالك متالق كالنجوم في السماء • انك نبضة الحياة في قلبى

فقالت فيرا بابتهاج :

ــ ما اجمل هذا الكلام ..

وقال بافيل لايليا :

ــ كف عن الحملقة الى فيرا يا ايليا •• ابحث لك عن فتاة اخرى

ورنت فيرا الى ايليا وقالت باسمة :

ــ فتاة جميلة ! ..

فابتسم ايليا وقال :

ــ لا اظن انى ساجد فتاة اجمل منك ..

فردت فيرا برقة :

ــ اخشى أن تكون مبالغا يا صديقى ..

وقطب بافيل جبينه فجأة ثم قال بصوت يقطر بالمرارة :

ــ ان كل شيء يبدو رائعا فى لحظة .. وفي اللحظة التالية يتحول الى عذاب حين اتذكر .. اتذكر الواقع .. وكان شخصا ما اغمـد سكينا فى قلبى

فقالت فيرا وهى تنكس راسها :

ــ لا داعى لان تتذكر ..

ولاحظ ايليا احمرار أذنيها بشدة •• واســــــــــتطردت هي تقول :

ــ يجب أن تردد لنفسك في كل مساء هذه العبارة يا بافيل: ان اليوم الذى مضي هو يومي السعيد ، لانها لى وحـــــدى .. انني اتالم مثلك يا بافيل •• ولكننى أنسى الامي حين ألقاك وأسعد بك

وقطب بافيل جبينه وهو ينصت لها ، وتمنى ايليا أن يقــــول شيئا يمكن أن يخفف من آلام هذين العاشقين .. وأخيرا قال :

ــ ماذا فى وسع الانسان أن يفعل اذا لم يكن للعقدة حـــل ؟ كل ما أستطيع أن أقوله لكما هو أنه لو كان معى مبلغ ألف روبل لاعطيته لكما قائلا : خذا هذا المبلغ من أجل الحب .. لانى أراه حبا نظيفا ،

صادقا ، متبادلا .. ولا شيء في الحياة يساوي هذا اللون من الحب

وتهض واقفا في غمرة انفعاله ، وتلقى نظرات الفتاة المفعمة بالشكر والعرفان ، وأوما الى بافيل المبتسم لكلماته ، ثم أردف قائلا :

ـ هذه أول مرة أرى فيها الحب الحقيقى الصادق متبادلا بين اثنين، انك شاب محظوظ يابافيل ، واعترف انى احسدك واغبطك .. أما أنا فانني أشرب من نفس النهر الذى يغتسل فيه حثالة الناس .. ان الله كفيل بتطهير مياه مثل هذا النهر

وصاح بافيل قائلا :

ـ مرحى يا ايليا .. وشكرا ..

وقالت فيرا :

ـ انك صديق طيب القلب يا ايليا ..

وأوما ايليا برأسه وقال :

ـ أذن قدمى لى قدحا من الشاى ! ..

وقال بافيل وقد توهج وجهه بفعل الخمر ، وكان يروح ويجيء في الغرفة :

ـ اللعنة على كل شيء .. ان الحياة جميلة ما دام فيهاناسأمثالك .. لقد احسنت بدعوتك الي هنا يا ايليا .. لنشرب تكريما لك

وقالت فيرا مشيرة الى بافيل :

ـ لقد شعشعت الخمر في رأسه . وهو دائما هكذا .. امان يحلق في السماء ، أو يهوى الى القاع من فرط اليأس

وفي تلك اللحظة سمع الجميع نقرا على الباب وصوتا نسائيا ناعما يقول :

ـ هل تسمحين لى بالدخول يا فيرا .. ؟

فردت فيرا قائلة :

ـ آه .. تفضلى بالدخول .. هذه اولمبيادا يا أيليا .. جارتى وصديقتى ..

ودخلته أولمبيادا .. ورآها ايليا امرأة فى نحو الثلاثين من العمر طويلة القامة ، عريضة الكتفين ، خمرية اللون ، سوداءالشعر والعينين،

بارزة الصدر تتفجر الانوثة من نظراتها وابتسامة شفتيها ، كما ينساب العطر من غلالتها الشفافة

قالت في شبه اعتذار :

ـ أحسست بالوحدة والعزلة وانا أسمعكم تتحدثون وتضحكون ، فرأيت أن انضم اليكم .. وها انا أرى شابا بلا سيدة.. ومن ثم فسوف اتولى أمره ..

ثم جلست بجوار ايليا وأردفت قائلة :

ـ ألا تشعر بالضجر من غزلهما ؟ ألا تحس بالغيرة ؟

فقال ايليا مرتبكا :

ـ من العسير أن يضجر الانسان منهما ..

وابتسمت أوليمبيادا ، ثم تبادلت حديثا قصيرا مع فيرا عن بعض الشئون الخاصة ، ثم أردفت قائلة :

ـ انني لا زلت افكر في قبول عرض بولكتوف والحياة معه .. ما رأيك ؟

واكتفى ايليا بالانصات ، مستمتعا بعطر أوليمبيادا ، وجمالها .. وقالت فيرا :

ـ لا أستطيع أن أنصحك بشيء يا أوليمبيادا ..

ـ انه غني عجوز .. ولكنه بخيل . وقد طلبت منه أن يودع في البنك باسمي مبلغ خمسة آلاف روبل ، ثم يعطيني ثلاثمائة كل شهر .. ولكنه وافق على ثلاثة آلاف روبل في البنك ، ومائتي روبل كل شهر

فقالت فيرا :

ـ لا داعي للحديث في هذا الأمر الآن يا عزيزتي ..

ـ صدقت ..

ثم التفتت الى أيليا وأردفت قائلة :

ـ هلم نتحدث معا أيها الشاب .. انني معجبة بك .. فان لك وجها وسيما وعينين معبرتين .. ما رأيك في هذا ؟

فغمغم ايليا قائلا وهو يشعر أن هذه المرأة تلفه بسحرها وجمالها :

ـ لا شيء

ـ لا شيء .. حسنا .. بماذا تشتغل ؟ ..

ـ اشتغل بائعا متجولا ..

ـ أحقا ؟ ظننتك موظفا في بنك أو مساعدا في متجر كبير !

فقال ايليا وهو يشعر بالخدر من عطر أولمبيادا الفواح :

ـ انني أحب أن أبدو نظيفا .. واني مسرور برأيك في ..

ـ واني سعيدة بمعرفتك .. هل تحسن التخمين ؟ ..

ـ ماذا تقصدين ؟ ..

ـ الا تخمن اننا غير مرغوبين هنا ؟ ..

ثم غمزت بعينيها الى حيث جلست فيرا بجوار بافيل ..

وغمغم ايليا قائلا في خجل :

ـ كنت على وشك الرحيل ..

وقالت أولمبيادا :

ـ هل تسمحين لي بسرقة ضيفك منك يا فيرا ؟

فضحكت فيرا قائلة :

ـ يمكنك اذا سمح لك بذلك ! ..

وقال ايليا مرتبكا :

ـ الى اين ؟ ..

وقال بافيل :

ـ اذهب معها دون أن تسأل ايها الاحمق ..

ونهض ايليا مترنحا .. وتناولته أولمبيادا ذراعه وقالت وهي تخرج به من الغرفة :

ـ انك محتاج الى الترويض ، وأنا متقلبة الاطوار وأحب أن أفرض رأيي على الغير . فاذا اردت أن اطفيء الشمس ، صعدت الى السطح وأخذت انفخ حتى ينقطع نفسي .. هذه طبيعتي .

وسار ايليا معها دون أن يفهم شيئا .. ذلك أن عطرها وملامسة جسمها لجسمه جعلاه في حالة تشبه الخدر

***

وانغمر ايليا في علاقته بأولمبيادا . واحس ان هذه العلاقة قد ملأت قلبه بالرضى عن نفسه وعن الحياة ، بل خيل اليه انه وجد في أولمبيادا تعويضا عن الآلام التي ملأت بها الاقدار قلبه الصغير . وكلما تذكر


ـ اننى لازلت افكر
فى قبــــول عرض
بولكتوف والحيــاة
معه .. ما رايك ؟

أن هذه المرأة الجميلة الانيقة تغمره بالقبـــلات والعناق بمحض رغبتها ودون ان تسأله شيئا . ازداد احساسا بالرضي عن نفسه.

وكانت أولمبيادا تقول له وهي تتخلل شعره الناعم بأصابعها :

ـ يا فتاي الحبيب ! انني ازداد حبا لك يوما بعد يوم . أن لك قلبا طموحا لا يرضى بالهوان ، ولا يهدأ حتى يظفر من الحياة بمايريد. وهذه طبيعتي أيضا . ولو كنت أصغر سنا لتزوجتك .. ولعشنا معا في سعادة دائمة

وكان ايليا يحترمها .. فقد وجد انها بارعة ، وراجحة التفكير رغم هذه الحياة التي تحياها . وكان جسمها قويا شابا وصوتها صافيـــا عذب الرنين

الا أنه كان يفاجأ ـ أحيانا ، عندما يزورها في غرفتها على غيرموعد ، برؤيتها مكومة في فراشها ، شعثة الشعر ، شاحبة الوجه ، ذابلة العينين ، وكأنما داستها اقدام في زحمة الحياة . ويحس بالنفور يملأ قلبه وهو واقف ينظر اليها ، دون أن يجد ما يقوله لها . وتدركهي مايجول في ذهنه ، فتلتف في بطانيتها وتقول له آمرة :

ـ أذهب الى غرفة فيرا وانتظرني هناك .. »

ثم تردف قائلة قبل أن يغادر الغرفة :

ـ أطلب من الخادمة العجوز أن تحضر لي ماء باردا ومعـــه قطعة ثلج ..

ويذهب ايليا الى الغرفة الصغيرة الانيقة الخاصة بفيرا . فاذا رأت هذه أمارات الاضطراب على وجهه قالت له بابتسامة عذبة :

ـ ان اختنا لا تخلو من الآلام والاحزان ..

ويتنهد ايليا قائلا :

ـ آه يا فيرا .. ان آنامك مثـــل الثلوج .. تذوب أمام حرارة ابتسامتك

ـ يا للمسكين بافيل .. ياله من بائس ..

وكان ايليا يشعر نحو فيرا بالمودة والعطف . ولشد ما كان يحزنه أن يراها في عراك وخصومة مع بافيل ، ومن ثم كان يبذل كل جهده لاصلاح الامور بينهما . وكان يستمتع بالجلوس في غرفتها ومراقبتها وهي تمشط شعرها الذهبي أو ترتق أثوابها ، أو تغني لنفسها ، وفي

مثل هذه اللحظات كان يزداد عطفه عليها كمايزداداحساسه بتعاستها. فاذا حاول أن يخفف عنها ، قالت له بصوت حزين :

ـ اننا لا نستطيع أن نستمر على هذه الحال يا ايليا . لانستطيع. وهذا الوضع لا يهمني كثيرا ، فقد حلت على اللعنة الى الابد . ولكن ما ذنب بافيل في التصاقه بى ومزج اقداره بأقدارى ؟

وتدخل أولمبيادا في سكون وقد بدت في جمالها كأنها شعاع هادىء من اشعة القمر . وتقول لصاحبها ايليا :

ـ تعال يا حبيبى واشرب معى الشاى . اما أنت يا فيرا ، فيمكنك أن تأتى بعد قليل ..

ويمضى ايليا معها مذهولا لايكاد يصدق ان هذه المرأةالانيقةالمنتعشة هى نفس المرأة التى تركها قبل ذلك بلحظات ذابلة مكومة مسحوقة تحت الاقدام

وقالت له وهى تشرب الشاى معه :

ـ من المؤسف انك تركت المدرسة قبل الاوان . يجب أن تقوم بعمل اخر غير بيع السلع فى الطرقات . انتظر حتى أمضى للحياة مع العجوز بولكتوف وسوف أقدم لك كل المساعدات الممكنة لتحقيق أهدافك

ـ هل قبل أن يعطيك الخمسة الاف روبل ؟

ـ سوف يقبل رغما عنه ..

فقال أيليا بحقد شديد :

ـ لو جئت يوما ووجدته معك هنا فسوف اقطع رقبته

وضحكت قائلة :

ـ لا تقطعها قبل أن أظفر منه بالمال ..

***

وحقق لها التاجر العجوز طلباتها .. ولم يلبث ايليا غير ايام حتى اصبح يزورها فى مسكنها الجديد الانيق ، حيث كان يجلس مذهولا بروعة الطنافس والاثاثات .. وكانت أولمبيادا تعامله وتتحدث اليه كأنما لم يحدث فى حياتها شىء .. انها نفس أولمبيادا التى تعرف بها عند خيرا

قالت له ذات ليلة :

ـ انني الان في السابعة والعشرين من العمر .. وعندما أبلغ

الثلاثين سيكون معي خمسة عشر ألف روبل • وعندئذ ساهجر هذا العجوز اللعين ، وأعيش حرة بلا قيود •• تعلم مني كيف تقتنص الفرص من مخالب القدر يا ولدى الحبيب •

وتعلم ايليا منها كيف يسعى الى تحقيق رغباته بلا تردد أو تخاذل الا انه كان يشعر بالمهانة والاذلال كلما تذكر أن هناك من يشاركه فيها •• وفي اللحظة التالية تهدأ نفسه حين يتذكر أنه سيمتلك يوما متجرا خاصا به ، ومسكنا نظيفا يستطيع أن يستقبل فيه هذه المرأة الفاتنة

كان يشعر أنه لا يحبها بقدر ما يحتاج اليها ••

وعلى هذا النحو انصرمت ثلاثة اسابيع ••



الفصل الرابع

الجــــريمة .. !

عاد ايليا ذات مساء الى بيت الخمار بتروشكا حيث رأى برفشـــكا الاسكافى والد ماشا ، جالسا فى غرفته مع ياكوف . وكانت أمامهما زجاجة فودكا . وكان ياكوف منبطحا براسه على المائدة يقول بصوت مخمور :

ــ ان الله الذى يعلم كل شىء ، يعلم أن أبى لا يحبنى ،انه لص .. أليس كذلك يا برفشكا ؟

ورد الاسكافى قائلا :

ــ نعم يا ولدى .. هذه هى الحقيقة وان كانت محزنة ..

ــ اذن ماذا أفعل .. ماذا استطيع أن أفعل ؟ ..

ودهش ايليا وهو يرى صديقه الوادع الرقيق ياكوف على هــذه الحالة المؤسفة . وأخيرا تقدم اليه وقال فى لهجة حاسمة :

ــ ماذا تفعل هنا يا ياكوف ؟

وفزع ياكوف ، ورفع رأسه فى رعب ثم قال :

ــ أوه .. حسبتك أبى ..

ــ ماذا تفعل ؟ .. اننى اسألك ..

وقال الاسكافى فى احتجاج :

ــ دعه وشأنه يا ايليا ! ان من حقه أن ينسى الامه بالشراب

وقال ياكوف بصوت عال :

ــ لقد ضربنى أبى .. ضربنى بقسوة ..

وقال برفشكا الاسكافى مؤكدا :

ـ نعم .. رأيته وهو يضربه ، والله على ما أقول شهيد

وتساءل ايليا :

ـ لماذا ؟ لماذا ضربه ؟ وبهذه المناسبة أين ماشا ..

ـ لقد بكت من أجل ياكوف حتى تورمت عيناها ، ولم تهدأ الا عندما جاءت ماتيتزا وحملتها معها الى غرفتها .. اما سبب ضرب بتروشكا لابنه ، فهو عمك ترنتي ، لقد طلب عمك أن يسمح له بتروشكا بالرحيل الى كييف ليظفر بالبركة والغفران من رجل تقى صالح هنـــاك .. ووافق بتروشكا فورا على رحيل عمك ، لان اللص يبتهج بالخلاص من شركائه في الغنيمة . ولما طلب ياكوف ان يذهب مع ترنتي .. رفض بتروشكا ، وصمم الفتى على الرحيل ، فانهال بتروشكا بالضرب عليه حتى كاد يقتله

وقال ياكوف مهتاجا :

ـ انني لن اعيش معه بعد اليوم .. نعم .. لن اعيش معه . لمــاذا يضربني .. ماذا فعلت ؟!

وهز ايليا كتفيه وقد أدرك أنه لن يستطيع أن يفعل شيئا ، ومضى الى غرفته ، وهناك لحق به عمه الاحدب ترنتي يقـــــول بوجه مشرق بالابتهاج :

ـ أخيرا آن وقت رحيـــــلي .. يااله السماء .. انني اشــــعر كالسجين الذى حان وقت الافراج عنه

ثم اردف قائلا بصوت هامس :

ـ انني ساتركك هنا وحيدا .. ولهذا رأيت .. رأيت ..

ـ رأيت ماذا ؟ قل وأسرع ..

ـ رأيت أن ادخر لك مبلغا من المال يعينك على الحيـــــاة اثناء غيبتي ...

وأرسل ايليا ضحكة جوفاء خشنة وقال :

ـ اذن فقد ادخرت مبلغا من المال يا عمي ؟!

فقال ترنتي وهو يشيح بوجهه في اضطراب :

ـ نعم ..وقد قررت أن أتبرع للكنيســة بمائتي روبل ، واترك لك مائة ..

فرد ايليا بسرعة :

ـ مائة ؟ فقط ؟ !

ثم أردف قائلا وقد ثار الغضب في قلبه :

ـ انني لن اتناول شيئا من مالك المسروق ..

ففتح ترنتي فمه ، ونظر في رعب الى ايليا ثم قال بخوف :

ـ انك كابني يا ايليا .. وقد ارتكبت هذه الخطيئة من اجلك . اردت ان أحصل لك على مبلغ من المال يساعدك في الحياة ان اللـه لن يغفر لي هذه الخطيئة اذا رفضت أن تأخذ هذا المال

فهتف ايليا قائلا في استنكار :

ـ اذن فأنت تريد أن تلقى الله خالص الحساب ؟ أليس كذلك ؟ هل طلبت منك أن تسرق مال العجوز ميريمي ؟

فقال ترنتي بلهجة مضحكة :

ـ انك لم تطلب من أحد أن تولد أيضـــا . خذ المال يا بني حتى يستريح ضميري ... أن اللـــه لن يغفر لي اذا لم تأخذ هذا المال

فهز ايليا كتفيه وقال :

ـ حسنا .. سآخذ هذا المبلغ وان كان تافها .. كنت أتمنى لو كان ألف روبل حتى استطيع ان أفعل به شيئا ذا قيمة

وبعد ساعة ، في تلك الليلة ، كان ايليا واقفا أمام باب المســكن الجديد لاولمبيادا . وكان قد قرر أن يطلب منهـــا في تلك الليلة أن تساعده في البحث عن عمل لماشا ـ كخادمة في احد البيوت المحترمة ـ حتى ينقذها من الجو الفاســـد الذي تعيش فيه .. لقد خشي أن تعتاد الفتاة على البغاء مع ماتيتزا ، فينتهي بهـــا الامر الى التسول معها

وانتظر امام الباب فترة طويلة بعد ان طرق عليه بضـــع مرات . وأخيرا سمع صوتا متحشرجا رفيعا يقول :

ـ من الطارق ؟ ..

وقال ايليا وهو يظن أن المتحدث خادم جديد لاولمبيادا :

ـ انني ايليا ..

وفتح الباب رجل عجوز مجعد الوجه ، غائر العينين ، أصلع الرأس ، على بشرته اثار جدري قديم . وقال بصوته المتحشرج الرفيع وهـــو يرفع في يده سراجا :

ـ من أنت ؟ وماذا تريد ؟
ـ هل اولمبيادا موجودة ؟
ـ لماذا ؟
واضطرب وجه ايليا ، وشعر بقلبه يغوص بين جوانبه وهو يتذكر ان هذا الرجل الاعجف يشاركه فى أولمبيادا الحسناء
وقال أخيرا :
ـ اننى بائع متجول !
وطرف العجوز بأجفانه المنحولة وقال :
ـ وماذا تبيع أيها البائع المتجول ؟
ـ كل شيء .. شرائط وروائح ودبابيس وصابون و ..
وقال الرجل ساخرا :
ـ هه ؟ شرائط وروائح للجميلات ؛ حسنا .. وماذا تريد أيها البائع المتجول ؟
وأطرق ايليا برأسه ،وشعر كأن بقعا سوداء نسجت أمام عينيه،ثم قال :
ـ اولمبيادا داميلونا ..
ـ وماذا تريد منها ؟
ـ انها مدينة لى ببعض المال
واحس ايليا بالتقزز من الرجل العجوز ، وبالحقد عليه ، وخيل اليه ان صوته الرفيع المتحشرج يخترق قلبه كالسهام
ـ مدينة لك ببعض المال ؛ حسنة جدا
ثم اقترب العجوز بوجهه من وجه ايليا وقال وهو يحملق فيه بعينين كعينتى الافعى :
ـ وأين الفاتورة ؟ سلمنى الفاتورة
فتراجع ايليا فى خوف وقال :
ـ أية فاتورة تعنى ؟
ـ فاتورة سيدك الذى ارسلك .. هاتها حالا
فصاح ايليا فى يأس وقد شعر أن شيئا رهيبا سوف يحدث :
ـ ليس معى فواتير
وفى تلك اللحظة ظهرت أولمبيادا وراء الرجل العجوز ، وقالت بهدوء :

ـ ما هذه الضجة يا بولكتوف ؟

ـ ان هذا البائع المتجول جاء زاعما انك مدينة له ببعض المـــال ياعزيزتى ..

فأزاحت أولمبيادا الرجل العجوز عن طريقها وقالت لايليا بلهجة جادة وهى تضع يدها فى جيب ثوبها الحريرى الفاخر :

ـ ألم يكن ممكنا ان تأتى فى وقت آخر لتحصيل مالك ؟

وهتف العجوز بصوته المتحشرج الرفيع :

ـ نعم .. نعم .. انك غبى .. لا تعرف متى ينبغى تحصـــيل الاموال .. حمار !

وتسمر ايليا فى مكانه وكأنما تحول الى تمثـــال من الحجر ، أما أولمبيادا فقد قالت :

ـ لا داعى للصياح يا بولكتوف .. ان صوتك مزعج . كم المبـــلغ المطلوب أيها الفتى .. اربعة روبلات ونصف ؟ هذا هو ..

وقال العجوز حين رآها تقدم المبلغ لايليا :

ـ والآن هلم انصرف بسرعة ، وحذار أن تأتى الى هذا البيت مرة اخرى ..

ووقف ايليا ـ بعد أن اغلق الباب فى وجهه ـ مذهولا لا يكاد يدرك هل هو فى يقظة أم فى حلم . وكان يمسك باحدى يديه قبعتـــــه ، وبالاخرى نقود أولمبيادا . ولما شعر اخيرا بأطرافه تكاد تتجمد من فرط البرد ، وضع القبعة على رأسه ، وسار مطرق الوجه ، محزون القلب، يرى بعين الخيال ذلك العجوز الاعجف وهو يضم فتاته أولمبيـــــادا مستمتعا بالدفء داخل المسكن ، بينما يسير هو ، على غير هدى ، فى الظلام والبرد

***

وفى اليوم التالى اخذ ايليا يسير ذهابا وجيئة فى الشارع الرئيسى بالمدينة . وكانت ذكريات الليلة الماضية تستبد بذهنه وتعصر قلبه وتلهث انفاسه وتلهب جسمه رغم الثلوج المتساقطة حوله

ومر فى طريقه بحانوت صغير محصور فى ركن بين كنيسة صغيرة ومنزل كبير . وكانت اللافتة الموضوعة على الحانوت كما يلى :

« ج.ف.بولكتوف »

« بنك رهونات وتجارة نقود من كل الانواع »

وخيل الى ايليا انه لمح الرجل العجوز جالسا وراء مكتب صغير داخل الحانوت ، فعاد ادراجه ، ووقف ينظر اليه وهو يشعر برغبة ملحة في الدخول وتسوية الحساب معه . وتذكر فجأة أن لديه ـ كأي بائع متجول ـ بضع نقود ذات قيمة تاريخية . وقرر ان يتخذها ذريعة لدخول الحانوت وتسوية الحساب مع ذلك العجوز اللعين

ودخل حاملا صندوقه وقال بجزاة :

ـ طاب يومك ايها السيد ..

ورفع الرجل وجهه عن ايقونة صغيرة كان يفحصها بمنظار مكبر ، ثم قال بلا مبالاة :

ـ ماذا تريد ..؟

ـ الا تعرفني ؟..

وعاد الرجل ينظر اليه ويقول :

ـ ربما أعرفك ، وربما لا .. فماذا تريد ؟

ـ لدي كمية من النقود القديمة

ـ دعنا نراها ..

ولما قدمها ايليا اليه ، فحصها الرجل بنظرات عابرة ، ثم ألقى بها في وجه ايليا قائلا بسخرية :

ـ انها لاتساوى وزنها رصاصا .. هلم اخرج ودعني أواصل عملي ..

ورفع ايليا قبضته وأهوى بها على رأس العجوز ، ثم ألقى بنفسه عبر المكتب وامسك بالعنق الضامر بين يديه ، ورأى العينين الجاحظتين المليئتين بالفزع ، ثم سمع الصوت المتحشرج يخرج خافتا :

ـ الرحمة .. الرحمة . خذ كل شيء ودعني أحيا ..

ولكن ايليا ظل يضغط ويضغط وهو يتمتم :

ـ أيها العقرب القذر ..

وشعر بشيء ينكسر تحت يديه ، وبلعاب ساخن يسيل على أصابعه، ولكنه ظل يضغط وكأنه مدفوع بقوة خفية رهيبة لا يرى او يسمع

شيئا . وأخيرا شعر بجسم العجوز يثقل في يديـــه ، فالقى به وراء المكتب ، واذا هو جثة هامدة

ونظر ايليا الى الجثة في رعب وتقزز .. ولكنه أحس كأن شيئا ثقيلا أزيح عن قلبه ...



الفصل الخامس

مابعد الجريمة

تلفت ايليا حوله ، فوجد الحانوت خاليا ، ساكنا ، وكانت الثلوج لا تزال تتساقط بغزارة في الخارج . وعلى أرضية الحانوت لمح ايليا قطعتي صابون وكيس نقود ، ولفة أشرطة . وانحنى بسرعة يلتقط هذه الاشياء وهو يعلم انها سقطت منه . ثم انحنى فوق المكتب والقى نظرة أخيرة على الرجل العجوز ، فوجده لا يزال مكوما ، جثة هامدة ، بين المكتب والجدار . وفي نفس اللحظة وقعت أنظار ايليا على درج النقود مفتوحا ، تتالق فيه قطع النقد الذهبية والفضـــــية مع رزم الاوراق المالية . وفي سرعة بالغة ، أخذ هذه الرزم الواحدة بعد الاخرى ودسها في جيوبه الداخلية وتحت قميصه

وغادر الحانوت متمهلا .. وبعد خطوات قليلة ، غطى صـــندوق سلعه بقطعة من القماش . وكانت الثلوج تتساقط بغزارة ، وراح ينظر اليها في ذهول .. وفجأة أحس بآلام في عينيه ، فوضع يده عليها وفوجيء بأنه عاجز من اغلاقهما .. وتسمر في مكانه مذهولا منزعجا . وخيل اليه ان عينيه ستبقيان هكذا دائما .. مفتوحتين ، جاحظتين ، مثل عيني بولكتوف ، يقرأ الناس فيها سطور الجريمة . ولكن الاجفان لم تلبث ان انسدلت فتلاشي فزعه ، وهدأت نفســـه ، ووقف يتنفس بعمق سعيدا بالظلام المحيط به بعد أن اغلق عينيه . وسمع شخصا ما يطلب منه المسير ، ففتح عينيه ونظر اليه ، فاذا هو رجل طـــويل القامة يرتدي سترة من جلود الاغنام . وراح ايليا يرقبه حتى اختفى في غلالات الثلوج المتساقطة . وإخيرا ثبت قبعته على رأسه واستأنف

المسير على الافريز ، شاعرا بالألم فى عينيه ، وبالثقل فى قلبه ، وكانت كتفاه تختلجان ، واصابعه تتشنج ، وأحاسيس التحدى تطرد الخوف من قلبه

ولما بلغ مفترق الطريق ، راى الشرطي بثوبه الرمادى ، فتقدم اليه بثبات ، وقال له دون أن يفكر فيما يفعل :

ــ ان الثلوج تتساقط بكثرة ..

فرد الشرطى بلا اهتمام :

ــ احقا ؟ ان الجو لن يلبث حتى يعتدل ..

ــ ترى كم الساعة الآن ؟

ــ انتظر لارى ..

ثم راح يخرج من جيب سترته الداخلي ساعة فضية ، وابتهج ايليا بوقوفه بجوار هذا الشرطي الضخم ذى اللحية الصغيرة والوجه العريض . وفجأة وجد نفسه يضحك عاليا ، فقال له الشرطي وهو يفتح غطاء الساعة بظفره :

ــ لماذا تضحك ؟..

ــ من الطريقة التى تتراكم بها الثلوج عليك ..

ــ ليس فى هذا ما يضحك . الساعة الآن النصف بعد الواحدة ظهرا .. ان الثلوج تتراكم على كل انسان فى الطريق . أما انت فيمكنك ايها الفتى ان تجلس فى مشرب دافىء .. انا فقط الذى يجب أن ابقى فى مكاني حتى المساء

وأغلق ساعته . وقال ايليا مشيرا الى مشرب قريب :

ــ صدقت .. لسوف أجلس فى هذا المشرب .. طاب يومك ..

وجلس ايليا فى المشرب بجوار النافذة التى يمكن ان يرى منها الكنيسة الصغيرة المجاورة لحانوت بولكتوف . ولكنه لم يستطع ان يرى شيئا بسبب غلالات الثلوج المتساقطة بلا انقطاع . وراح يتسامل بامعان قذف الثلوج المتهاوية الكاسية لاثار الاقدام بطبقة كثيفة من الجليد الناعم . وكان قلبه ينبض بقوة وسرعة ، الا انه كان يشعر بالانتعاش والبهجة . وهكذا ظل جالسا ، بعقل لا يفكر في شيء ينتظر حدوث شيء

ولما أحضر له النادل الشاى ، لم يملك نفسه من سؤاله :

ــ الا من اخبار جديدة ؟

فرد النادل قائلا وهو يهرع بعيدا :

ــ يقال ان الجو سيعتدل بعد قليل ..

وراح يشرب الشاي وينتظر .. وتأمل اصابعه .. لا .. ليس عليها آثار من الجريمة .. آه .. انه يسمع صوتا يرتفع بهذه العبارة :

ــ لقد قتل بولكتوف ..

ووثب ايليا واقفا وكأن العبارة نداء موجه اليه . وشعر بالنشاط يدب في المشرب ، ورأى الرواد ينهضون ويتجهون الى الباب . والقى بقطعة نقود على المائدة ، وحمل صندوقه واسرع خارجا مع الجميع

وأمام حانوت بولكتوف رأى جمعا من الناس ، ورجال الشرطة يدخلون ويخرجون ويهتفون الى بعضهم البعض في اضطراب وقلق . وكان رجل الشرطة الملتحي ، الذي تحدث معه ايليا ، واقفا بالباب يمنع المتجمهرين من الدخول ، ومتلفتا حوله بنظرات تنم عن الخوف

ووقف ايليا في مكان مرئي من رجل الشرطة ، ينصت الى ثرثرة الواقفين . وكان ثمة رجل من أصحاب الحوانيت المجاورة يقول وهو يتخلل لحيته السوداء بأصابعه :

ــ عندما عاد غلام الحانوت ورأى سيده على هذه الحالة ظن انه مغشي عليه فقط ، فأسرع الى البقال بيوتر وطلب منه ان يهرع لاسعاف سيده .. وانطلق بيوتر الى حانوت بولكتوف ، وما كاد ان يراه حتى ادرك انه جثة هامدة .. هل تتصور ؟ لقد ثبت أنه مات مختنقا .. ! جريمة ترتكب في وضح النهار ، وفي الشارع الرئيسي ! . لا شك ان للقاتل أعصابا من فولاذ ؟

وقال آخر بقسوة :

ــ ان يد الله واضحة هنا ! لقد عجزت عدالة الارض عن الاقتصاص من بولكتوف الذي عاش يرتكب في كل يوم ، وفي كل ساعة جريمة من نوع ما .. وهكذا نجحت عدالة السماء في عقابه أخيرا ..

وقال الاول :

ــ هذه ارادة الله .. ما من شعرة تسقط من رأس الانسان الا بأمر من الله

وقال آخر :

ـ ان بولكتوف جدير بما حدث له .. فما أكثر ضحاياه الذين تعذبوا على يديه

وشعر ايليا ـ وهو ينصت ـ بفيض من القوة والجراة يملأ قلبه بالبهجة والرضى بحيث لو سأله أحد في تلك اللحظة من القاتل ، لضرب بيده على صدره وقال مزهوا :

ـ أنا القاتل ..

ودفعه هذا الشعور الجديد الي شق طريقه نحو باب الحانوت ، ولكن الشرطي أمسك بكتفه وقال آمرا :

ـ الى أين انت ذاهب . هلم ابتعد .. وبسرعة ، لاشأن لك بهذا

ودفعه بقوة ، فتراجع ايليا الى الخلف مترنحا واصطدم برجل من الواقفين ، فدفعه هذا بعيدا وهو يقول :

ـ يبدو ان هذا الشاب سكران ..

وابتسم ايليا لنفسه ، واسرع الى الدرجات الامامية للكنيسة الصغيرة فجلس عليها واخذ ينصت الى عبارات الحوار التي كانت تاتي اليه متناثرة :

ـ من سوء حظي ان تقع الجريمة أثناء نوبتي ..

ـ وما ذنبك ان الثلوج المتساقطة كانت تحجب الرؤيا على مسافة متر واحد

ـ لاشك انه اغنى رجل في المدينة !

ـ عليه اللعنة .. لقد كان يسلخ الذين يقعون بين يديه

ـ ها هي ذى زوجته قد حضرت ..

ووقف ايليا ليلقي نظرة على زوجة بولكتوف . ولم يلبث ان رآها تهبط من زحافة صغيرة معتمدة على ذراع أحد رجال الشرطة . وكانت سيدة في ملابس سوداء ، تضع نقابا خفيفا على وجهها ، ورداء من فراء الدببة على كتفيها

وفكر ايليا ـ وهو ينظر اليها ـ في اولمبيادا .. ثم سمعها تقول بصوت خافت مليء بالخوف :

ـ يا الهي الرحيم !..

وقال أحد الواقفين :

ـ هل حضر ابنه ؟..

ـ لا .. انه فى موسكو ..

ـ لاشك ان هذه النهاية جديرة به ..

ـ هذا هو رايى ايضا ..

وازدادت بهجة ايليا وهو يرى الجميع مسرورين بمقتل ذلك المرابى العجوز ، وكأنما كان بينه وبين كل مقيم بالمدينة ثأر قديم .

ولما نقلت جثة المرابى العجوز الى المشرحة ، عاد ايليا الى غرفته بمنزل بتروشكا حيث أخرج من جيوبه ومن تحت صديريته رزم الاوراق المالية . ولما احصاها وجدها اكثر قليلا من ثلاثة الاف روبل، وبعد ان لفها فى ورقة عادية ، قرر ان يخفيها فى غرفة الكرار بأعلى المنزل وحمل اللفافة فى يده ببساطة وصعد بها الى الطابق الثانى . وقبل ان يهم بالصعود الى الطابق الاعلى ، التقى به .. ياكوف على السلم ، فقال له مدهوشا :

ـ لقد عدت مبكرا على غير العادة يا ايليا ! ما هذا الذى معك ؟

فنظر ايليا الى اللفافة المحتوية على رزم الاوراق المالية ، ثم قال بصوته متهدج بالخوف :

ـ هذه ؟ لفافة اشرطة ..

ـ هل ستأتى وتشرب معنا قدحا من الشاى ؟

ـ بعد لحظات ..

وسار مسرعا ، ثم صعد الى الكرار فى حذر ، وكان كرارا مهجورا اتخذه صاحب البيت مخزنا للمهملات . وفى ركن محفور من هذا الكرار ، اخفى ايليا لفافة الاوراق المالية ، ثم هبط بهدوء وقد زايله الخوف ، وكأنه دفن ذلك الخوف مع المال

وكان يقول لنفسه مرددا :

ـ لماذا قتلته ؟ .. لماذا قتلته ؟ ..

ولما دخل غرفة ماشا ، وجدها مشغولة باعداد الشاى . وماكادت أن تراه حتى هتفت قائلة فى ابتهاج :

ـ آه .. لقد جئت الليلة مبكرا ..

ـ بسبب الثلوج المتساقطة ..

ثم اردف قائلا فى اضطراب وضيق وتوتر عصبى :

ـ ثم ما معنى انى جئت مبكرا ؟ اننى آتى عادة فى مثل هذا الوقت الا ترين ؟ ان الجو مظلم جدا ..

ـ ان الجو دائما مظلم ... ولماذا تصرخ هكذا .. ؟

ـ لانكم جميعا تتجسسون على .. اين انت ذاهبة ؟ لماذا جئت مبكرا ! ما هذا الذى فى يدك ؟ مالكم وشانى ؟

ونظرت ماشا اليه فى دهشة ثم قالت :

ـ لقد اصبحت حساسا أكثر مما ينبغى يا ايليا ؟

فقال وهو يجلس الى المائدة :

ـ اللعنة عليكم جميعا ..

ـ وعليك ايضا ! ..

وراح يرقبها وهى مشغولة باعداد الشاى .. كانت دقيقة الجسم ، نحيلة ، شاحبة البشرة ، يحسبها الرائى صبية فى الثامنة عشرة رغم عدم تجاوزها الخامسة عشرة .. كانت فى نظره أقرب ما تكون الى زهرة صغيرة برية تنبت بين وغل من البوص . وراح يرمقها وهو يفكر : هاهى ذى تعيش بمفردها فى هذا الجحر الارضى ، وتعمل عمل الكبار بلا مباهج او متع أو أى لون من الوان الترف . بل وبلا أى أمل ان كانت تعرف ما هو الامل . اما هو ، فسوف يحقق أمله الذى طالما داعبه .. سيعيش نظيفا مستقرا ، سيرفع رأسه بين الناس .. ولكن المقارنة بين حياته المقبلة ، وحياة ماشا جعلته يشعر بالحزن . فقال لها برفق :

ـ ماشا ؟ ..

ـ ماذا تريد أيها المشاغب ؟ ..

ـ هل .. هل تعرفين اننى كنت يوما ما شريرا ؟

ـ انك جدير بان يضربك أحد ضربا مبرحا كما فعل بتروشكا مع ابنه ياكوف . هذا ما ينقصك

ثم اردفت قائلة بسرعة :

ـ اسمع يا ايليا .. اطلب من عمك ان يصحبنى معه فى رحلته الى كييف . لسوف اشكرك على هذا طول حياتى ..

فهتف ايليا قائلا :

ـ ماذا ؟ يأخذك معه الى كييف ؟

فرفعت كفيها كأنها تبتهل وغمغمت بصوت حالم :

ـ ما أروع هذا ؟ ما أروع أن نبدأ الرحلة معا فى الربيع . ان هذا ما افكر فيه ليلا ونهارا .. بل انني أحلم به .. احلم بنفسى سائرة فى الطريق .. أسير وأسير الى مالا نهاية .. وكلما تعبت جلست فى ظل شجرة وارفة أتناول شيئا من ثمارها ، وأروى الظمأ من جدول قريب . أرجوك يا ايليا .. اتوسل اليك .. دعنى أقبل يدك

وأمسكت يده فجأة ، وانحنت عليها تقبلها ، ولكنه سحبها بسرعة وهو يقول :

ـ ايتها الحمقاء الصغيرة .. لا تقبلى يدى .. انني قاتل ..

وفزع من كلماته الاخيرة ، فاسرع يقول :

ـ أعنى كيف يكون الحال لو انني ارتكبت خطيئة لا تغتفر ؟ هل يليق أن تقبلى يدى فى مثل هذه الحالة ؟

ـ لماذا لا .. ؟ هل انت اسوأ من بتروشكا ؟ انني اقبل يده كلما اعطاني شيئا يؤكل . انني أقبل يده باشمئزاز ، ولكنه يرغمنى على هذا .. بل ويطلب منى أن اقبله فى وجهه .. وهو يقرصنى احيانا .. ويتحسس جسمى .. ذلك الحيوان !

وعندئذ قال ايليا بلهجة جادة :

ـ حسنا .. سوف أطلب من عمي أن يصحبك .. أطمئنى

وصاحت ماشا قائلة وهى تعانقه :

ـ أحقا .. أحقا .. يا لسعادتى ! ..

ـ كل ما ارجوه منك ان تصلى من اجلى

ـ سافعل يا ايليا .. سافعل .. طول عمرى ..

وفى تلك اللحظة دخل ياكوف قائلا :

ـ ما هذا الصياح ؟ لقد سمعتكما من الفناء ..

وتراقصت ماشا من فرط السعادة قائلة :

ـ سوف أرحل مع العم ترنتى فى الربيع ..

فقال ياكوف فزعا :

ـ ترحلين ؟ وانا ؟ ماذا أفعل ؟

فقال ايليا ضاحكا :

ـ ابحث لك عن مربية ترعاك ..

ـ بل سوف أغرق نفسي في الخمر .. الا اذا أمكنني الرحيل مع العم ترنتي ايضا

ـ وماذا يمنعك ؟ ..

ـ أبي .. انه لن يتردد في ارسال رجال الشرطة ورائي لاعادتي بالقوة .. نعم .. ليس لي ملاذ من متاعبي الا في الخمر .. آه .. ما اجمل ان يخرج الانسان من هذا الجحر الى الطبيعة .. يعيش في احضانها ، تحت شجرة وارفة ، وعلى ضفة جدول .. ويفكر .. ويفكر .. !

فقال ايليا بعنف :

ـ هذا هروب من الحياة .. وأنا لا أطيق الذين يهربون من الحياة

والتفت ياكوف اليه وقال مغيرا مجرى الحديث :

ـ لقد عثرت على كتاب عجيب .. بلا غلاف .. ولكن المعاني التي ينطوي عليها رائعة .. اسمع ..

فاسرع ايليا يقول :

ـ لا .. حذار .. انني لست على استعداد للجدال معك الليلة .. أما ان نتحدث في موضوعات عامة تفهمها ماشا أوانصرف ..

وانصرف ايليا بعد أن فرغ من الشاي الى غرفته . وما كاد ان يستلقي على فراشه حتى أقبل عليه عمه الاحدب ترنتي متسللا ، وقال في همس :

ـ جئت لاتحدث معك قليلا .. فان وقت رحيلي قد أزف ، وربما لا اجد فرصة أخرى للحديث معك ..

ـ هل نويته على الرحيل فعلا ؟

ـ نعم . بمجرد أن يتحسن الطقس . اريد ان اكون في كييف في الاسبوع المقدس

ـ حسنا . لماذا لا تأخذ ماشا معك ؟

فرفع الاحدب يديه في فزع وقال :

ـ ماشا ؟ ..

فقال ايليا في حزم :

ـ ليس هنا ما يحتم عليها البقاء . ثم انها في السن التي .. انت تعرف .. انها معرضة للخطر .. من ياكوف .. ومن بتروشكا

هل تفهم ما اعني ؟ ان هذا البيت اللعين مصيدة . يجب أن تبتعد عنه .. ولعلها لا تعود اليه ..

فولول الاحدب قائلا :

ـ ولكن ماذا عساى افعل بها ؟

ـ خذها معك .. وأنفق عليها المائة روبل التى تريد ان تعطيها لى . اننى لست بحاجة اليها . لسوف تصلى من أجلك .. ومن اجلى .. وصلاتها لا تقدر بمال .

ـ نعم .. نعم .. هذا صحيح .. لسوف افكر فى الامر ، اتعرف انى التقيت أمس برجل حكيم يدعى بيوترشيوف .. هل سمعت عنه ؟ انه رجل ورع تقى تنثال الحكمة من فمه . لقد ارسله الله الى ليخفف من عذاب ضميرى .. انى واثق بأن الله سيغفر لى ذنوبى ..

وصمت ايليا .. كان يريد أن ينصرف عمه ويتركه لنفسه .. ولافكاره . ولكن الاحدب أستطرد يقول بلهفة :

ـ لقد تحدثنا عن الخطيئة والغفران . اتعرف ماذا قال ؟ قال ان المحن والخطايا تطهر الروح البشرية وتدفعها الى التماس المغفرة من الله

فقال ايليا وهو يرمق عمه :

ـ هل يشبه الشيطان ؟ ذلك الرجل الحكيم ؟

فصاح مستنكرا :

ـ كيف تقول هذا ؟ انه رجل تقى ورع . انه ناسك مشهور مثل جدك . آه ، ايليا .. ايليا ..

واحنى الاحدب رأسه وزم شفتيه . وقال ايليا ضاحكا فى استهتار :

ـ حسنا . ! وماذا قال أيضا .. ؟

ـ قال ان الخطايا هى الاجنحة التى تطير بها الروح الى عالم الندم والتوبة حتى تصبح جديرة برحمة الله ..

فقال ايليا وهو يضحك مستهترا مرة اخرى :

ـ اتعرف يا عمى انك تشبه الشيطان ؟

فرفع الاحدب يديه يائسا . وفجاة وثب ايليا من فراشه ودفع به نحو الباب قائلا :

ـ اخرج الآن .. انني أريد أن أنفرد بنفسي .. انني في غير حاجة الى التوبة . ان كل شيء في نظري بأمر الله .. فلماذا انزعج! ان الله يعلم كل شيء وهو الآمر بكل شيء . والخطيئة قدر على البشر .. كل الناس خاطئون .. وقليل منهم التائبون .

فقال الاحدب :

ـ انني لا أكاد أفهم شيئا مما تقول ! ..

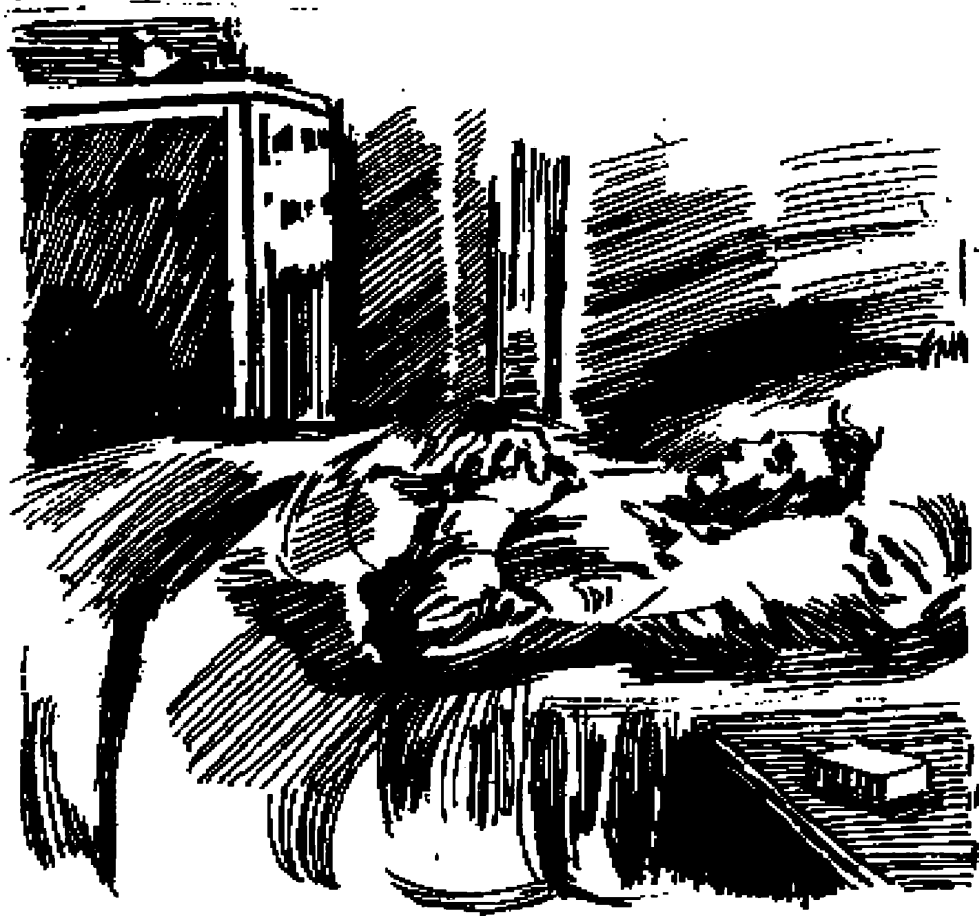
ـ حسنا .. ما دمت لا تفهم ، فاذهب ودعني وشاني .. انني متوعك ..

ـ هذا ما أراه ..

ـ اذن انصرف ، لاني أريد أن أنام ..

ولما انصرف الاحدب ترنتي ، أغمض ايليا عينيه وحاول أن ينام، ولكن أحداث اليوم ظلت تدور وتختلط بالاحاديث التي سمعها حتى خيل اليه انه يهوى الى اعماق سحيقة مظلمة ..

وأخيرا غلبه النوم على أمره ..



الفصل السادس

جلسة التحقيق

قرأ ايليا في صحف اليوم التالي ان رجال الشرطة يتخذون الاجراءات السريعة للقبض على قاتل التاجر بولكتوف .. وابتسم لنفسه واثقا أنهم سيعجزون عن القبض عليه الا اذا اتاح لهم الفرصة بنفسه

وفي المساء استلم رسالة قصيرة من أوليبيادا تطلب فيها ان يلتقي بها في مشرب بآخر شارع كوزنيكا في تمام التاسعة مساء . ولما ذهب في الموعد ، وجدها في انتظاره وقد حجبت وجهها بنقاب ، وارتدت ملابس عادية وكأنها متنكرة .. وجلس معها على انفراد في ركن المشرب . وقالت هي :

ـ لقد جئت على هذا النحو لان رجال الشرطة يراقبونني .. اطمئن .. انهم فقدوا أثري بعد نصف ساعة من خروجي من المسكن

فقال ايليا منفعلا :

ـ وما شأني أنا بهذا كله .. لماذا طلبت مقابلتي ؟

فرمقته أوليبيادا مليا ، ثم هزت رأسها وقالت هامسة : ..

ـ لقد استدعوني للتحقيق أمام وكيل النيابة .. وأعتقد انهم سيستدعونك أنت أيضا ..

ـ أنا ؟ لماذا ؟ ..

ـ لانهم عرفوا العلاقة التي بينك وبيني .. فاذا سألوك ، فقل لهم الحقيقة كاملة .. لا تخفي شيئا من علاقتك بي .. قل لهم متى رأيتني أول مرة ، وكيف توطدت العلاقة بيننا .. قل الحقيقة كاملة ..

ـ وماذا بعد ؟ ..

ـ واذا سألوك عن الرجل العجوز بولكتوف فقل انك لم تره في حياتك .. أبدا .. ولا تعرف شيئا عنه .. ولا عن علاقتي به . أتسمع ؟ ..

وشعر ايليا بابتهاج خفي حين ادرك انها تخشاه في قرارة نفسها. واراد أن يسخر منها فقال ضاحكا :

ـ ولماذا اكذب لماذا لا أقول الحقيقة .. لماذا لا أقول انني تخلصت من الرجل الذي يقف بيني وبين حبيبتي ..

فهتفت قائلة وهي تتراجع برأسها عنه :

ـ هذا كذب .. كذب .. انه لم يقف بيني وبينك .. كان يكفي أن تشير باصبعك الى وأنا أهجر كل شيء وأتبعك الى اخر الدنيا . ولكنك لم تفعل شيئا .. انك لا تحبني حقا . ولو كنت تحبني حقا لما سمحت لى بالحياة معه

فقال في حدة وهو يشعر أنها تحطم اسلحته بعتابها الصادق :

ـ كفى .. امسكي لسانك ..

ولكنها استطردت تقول :

ـ انني لم أرغب في اخفاء أي شيء عنك . انك شاب وقوى وانا أحبك . ماذا فعلت بي ؟ لو انك فقط طلبت مني أن اختار بينك وبينه ، لما ترددت في الاختيار .. ولكنك لم تفعل .. انك تريد أن تلهو بي فقط .. مثل الجميع ..

فرفع ايليا قبضة يده وهتف بين اسنانه :

ـ كيف تجرؤين .. ؟

فرفعت عيناها وقالت بحدة وعنف :

ـ اضربني .. اضربني .. أو اقتلني كما قتلته .. هل تريد أن أصيح وأعلن للجميع أنك قاتله ؟!

وجفل ايليا وشعر بالفزع برهة ، ولكنه لم يلبث ان ارسل ضحكة جافة قصيرة . ولاحظ أن أولمبيادا تعض على شفتيها وتتلفت حولها كأنما تبحث عن مكان تهرب اليه أو تختفي فيه .. وأخيرا أطرقت برأسها وتمتمت قائلة :

ـ أضحك .. اضحك .. عليك اللعنة ..

ـ شكرا ..

ـ عندما رأيتك أول مرة قلت لنفسى انك الرجل الذى عشت حياتي أتمنى أن أحبه .. انك الرجل الذى سوف ينقذنى من هذه الهاوية التى ترديت فيها

وقال ايليا بصوت رقيق :

ـ أوليبيادا ؟! ..

وظلت جالسة في صمت وسكون . وعاد يقول باحساس الرجل الذى يلقي بنفسه في هاوية :

ـ أولمبيادا ! لقد قتلت ذلك العجوز .. وهذه هي الحقيقة التي أعلنها أمام الله

وارتعدت شفتاها وتمتمت قائلة :

ـ أيها الاحمق ..

ثم تناولت يده وراحت تقبلها بحرارة وهي تقول :

ـ لماذا تريد أن تفسد على سعادتي .. لقد شعرت بالسعادة حين علمت بمقتله ..

ـ أنا الذى قتلته ..

ـ سكونا ! لا تقل هذا . انني سعيدة لأنهم قتلوه .. ولشدما أتمنى لو أنهم قتلوهم جميعا .. جميع الذين لمسونى .. فيما عدا أنت .. انك الرجل الوحيد الذى لم يعاملنى بوحشية ..

فاقترب منها ، وأخذ وجهها بين يديه ، وراح يقبلها بنهم وهو يشعر انه لم يحبها من قبل كما أحبها في تلك اللحظة

وعادت وهي تقول :

ـ عندما كنت تغضب منى يا فتاى الجبيب النظيف ، اشعر بضآلتي وقذارة حياتى ، فازداد حبا لك ..

وأجاب عليها بمزيد من القبل .. واستطردت هي قائلة :

ـ انك تحب جمالى .. هذه هي الحقيقة .. أما في اعماق نفسك فانك لا تحبنى كما ينبغي ان يكون الحب ، لانك لست راضيا عن حياتي هذه ، ولست مستعدا لان تغفرها لى . أما ذلك العجوز .. فنهض واقفا وقال :

ـ لا تتحدثي عنه .. وليكن بعد ذلك ما يكون .. انني اعترف بأني لن أنجو من عقاب الله اذا شاء ان يعاقبني .. وشكراً على حديثك عني يا أوليبيادا . انك على حق . وانا لم انصفك .. كنت أظن .. أظن ـ حسننا .. انني المسئول عن كل ما حدث ..

وراح يتحسس شعرها الناعم بحنان ، وأردف قائلا :

ـ ولكن لماذا .. لماذا ؟! ..

وأمسكت بيده ، وجذبته للجلوس بجوارها ، فقال دون أن يفهم شيئا من همساتها :

ـ انني قاتله .. أنا الذي قتلته ..

ـ صه .. لا تقل هذا ..

ـ لقد حدث كل شيء بالمصادفة .. والله وحده يعلم كيف حدث هذا . لم أكن أقصد ان أقتله . أردت فقط أن ألقي نظرة عليه في وضح النهار . هذا ما دفعني الى دخول حانوته .. لم تكن فكرة قتله تخطر ببالي في تلك اللحظة . ولكن الشيطان دفعني الى ارتكاب هذه الجريمة ، ولم يعصمني الله منها . ولكنني اسف على أخذي الاموال من حانوته .. ما كان ينبغي أن أفعل هذا

فضمته أوليبيادا الى صدرها بقوة وتمتمت قائلة :

ـ لقد احسنت اذ أخذت المال . لسوف تبدو الجريمة في نظر المحقق جريمة سرقة ـ أي ان الحافز عليها هو السرقة ، لا الغيرة

وقال ايليا كأنما يرد على سؤال :

ـ انني لن أعترف . ليعاقبني الله اذا شاء .. ولـــكنني لن أدع هؤلاء الناس يقتصون مني . انهم غير جديرين بمحاكمتي .. كيف اسمح لرجل مثل بتروشكا الخمار ان يحاكمني بصفته عضوا في هيئة المحلفين ومجلس المدينة ؟ لا .. انني لم أر حتى الان شخصا بلا خطايا .. فكيف يحكم الخاطئون على الخاطئين ؟!

وتمتمت أوليبيادا قائلة :

ـ آه .. لست أدري ما سوف يحدث يا فتاي الحبيب .. انني عاجزة عن التفكير .. هلم نتصرف الان ..

ثم اردفت قائلة :

ـ ماذا تنوي ان تفعل يا ايليا ؟ .. لا شك ان كل شيء لم يضع تماما ..

ـ اطمئني .. لسوف أعرف كيف أواجه المحقق .. أنه لن يكون اكثر ذكاء مني .. انني لن اتركهم يقتلونني او يرسلون بي الى سيبريا من اجل المرابي اللعين . ان الحياة لا تزال ممتدة أمامي ، وما اكثر ما أريد أن أحققه فيها

والتمعت عيناه بالحماس . وقالت هي :

ـ هل المال الذى أخذته ثلاثة الاف روبل فقط ؟

ـ اكثر قليلا ..

ـ يالك من سوء الحظ .. لماذا لم تأخذ كل ما كان لـــديه من جواهر ؟

ـ انني لم اقتله من اجل المال .. الا تفهمين .. حسنا .. سأنصرف أنا أولا ..

وقالت بعد أن قبلته بحرارة :

ـ تعال لزيارتي في أقرب فرصة . لا داعي لان نخفي علاقتنا

***

ومرت الايام تباعا وايليا ينتظر استدعاء المحقق له . واخيرا ـ في اليوم السادس ـ دخل غرفة المحقق ، وكان شابا يضع على عينيـــه نظارة ذهبية الاطار . وانحنى ايليا امامه باحترام ، وقال له المحقق وهو يتناول نظارته بأصابع بيضاء جميلة ويمسح زجاجها :

ـ كيف حالك .. اجلس ..

وجلس ايليا أمام الشاب . وخيم الصمت مدة طويلة . وأخيرا قال المحقق وهو ينقر بأصابعه على المكتب :

ـ انك ايليا لنييف اذا لم أكن مخطئا ؟

ـ نعم ..

ـ هل تعرف لماذا استدعيتك ؟

ـ لا ..

ـ أحقا ؟ الم تخبرك اولمبيادا ؟

ـ لا .. لم أرها منذ مدة طويلة ..

فتراجع المحقق الشاب في مقعده وقال بهدوء :

ـ منذ متى ؟! ..

ـ لا أذكر .. منذ ثمانية أو عشرة أيام ..

ـ أه .. هل اعتدت أن ترى بولكتوف في مسكنه ؟

فقال أيليا وهو ينظر ببراءة فى عيني المحقق :
ـ أتقصد الرجل الذى قتل ؟! ..
ـ نعم .. الرجل العجوز الذى قتل !
ـ لا .. لم أره فى مسكنها ابدا ..
ـ أبدا ..
ـ نعم .. أبدا ..
وساد الصمت مرة اخرى ، وفجأة قال المحقق وهو يرمق ايليا بامعان :
ـ هل تعرف أن اولمبيادا كانت عشيقة للرجل العجوز ؟
ـ لا ..
ـ كانت عشيقته .. وتلك هى الحقيقة المؤلمة ..
وهز ايليا كتفيه كأنما الامر لا يعنيه • وعاد المحقق يقول :
ـ منذ متى وأنت تعرف اولمبيادا ؟ ..
ـ منذ اكثر من عام ..
ـ هذا يعني انك تعرفها قبل ان تلتقى ببولكتوف ؟
وأدرك ايليا المصيدة التي يريد المحقق ان يوقعه فيها ، ومن ثم قال بهدوء :
ـ ومن أين لى ان اعرف هذا ؟
ومرة ثالثة خيم الصمت الثقيل على الغرفة • وقطعه المحقق بقوله :
ـ هل تستطيع على نحو ما ان تتذكر اين كنت يوم الثلاثاءالاسبق فيما بين الساعة الثانية والساعة الثالثة بعد الظهر ؟
ـ كنت اشرب الشاى فى مشرب ..
ـ آه .. في أى مشرب ؟ ..
ـ مشرب بينا ..
ـ كيف تفسر قدرتك على تذكر هذا كله بمثل هذا التحديد ؟
فقال ايليا بهدوء :
ـ قبل ان أدخل المشرب ، سألت رجل الشرطة عن الساعة ..
وأخذ المحقق ينقر بطرف القلم على المكتب ثم قال :
ـ وهل يعرفك رجل الشرطة هذا ؟ !

ـ نعم ..

ـ ألا تملك ساعة ؟

ـ لا ..

هل سبق أن سألت رجل الشرطة هذا عن الوقت ؟

ـ أحيانا ..

ـ هل أمضيت في المشرب وقتاً طويلا ؟

ـ بقيت فيه حتى سمعت بعضهم يهتف بنبأ الجريمة ..

ـ الى أين ذهبت بعد ذلك ؟ ..

ـ خرجت لأتفرج على الجثة ..

ـ هل رآك أحد هناك .. عند الحانوت ؟

ـ رآني رجل الشرطة .. بل لقد دفعني بعيدا!

ـ عظيم جدا ..

ثم أردف قائلا بصوت عادى كأنما يلقي سؤاله عرضا :

ـ متى سألت رجل الشرطة عن الوقت ؟ قبل وقوع الجـــريمة أو بعدها ؟

ـ وفطن ايليا مرة أخرى الى الفخ المنصوب له ومن ثم قال ببساطة :

ـ من أين لى أن أعرف ! ..

فأومأ المحقق برأسه ، ثم قال :

ـ عندما سرت في ذلك الشارع يومذاك ، هل لاحظت وجـود رجل طويل يرتدى سترة من جلود الاغنام ؟

ـ لا ..

وهنا دفع المحقق بأوراق التحقيق الى ايليا وقال له :

ـ اقرأ أقوالك فى هذه الاوراق ثم وقع عليها ..

ولما فعل ايليا هذا ، قال له المحقق :

ـ يمكنك أن تنصرف الآن ..

ولما خرج ايليا الى الطريق ، وجد نفسه غارقا فى بحر من العرق !



الفصل السابع

أين ماشا ؟

أسرع ايليا الى مسكن أولمبيادا ، فما كادت هذه أن تراه حتى أشرق وجهها الشاحب بالسعادة ، وكأنها أم تستقبل ابنا مفقودا .. وبعد أن صعد معها الى غرفتها ، وبعد أن أخبرها بما دار بينه وبين المحقق، قالت له :

ـ ما أشد ذكاءك ؟! لقد أحسنت التصرف ! ما رأيك في هذا المحقق ؟

ـ انه ثعلب مراوغ .. حاول كثيرا أن ينصب لي فخا فلم يستطع ..

وهتفت أولمبيادا قائلة :

ـ حمدا لله .. لقد اصبح كل شيء على ما يرام الان ..

ـ الواقع أن الحظ حالفنا ..

ولكن أولمبيادا لم تلبث أن قالت بقلق :

ـ ان رجال المباحث يتعقبونني ، وأعتقد أنهم يتعقبونك أيضا .. أرجو أن تكون دائما على حذر :

فقال ساخرا :

ـ دعيهم يفعلون .. انهم يريدون أن يدفعوا بنا وكأننا ذئاب في الغابة . ولكنهم لن ينجحوا .. لأننا لسنا ذئابا .. اننا مخلوقات آدمية تعسة .. انني لم أكن أقصد خنق بولكتوف . ولكن الحياة تخنقني .. كما قال بافيل في قصيدته .. وتخنقه وتخنق ياكوف أيضا .. وكل الناس

ونهض ايليا عن المتكأ ، واتجه نحو النافذة ، وأردف قائلا بصوت مفعم بالأسى :

ـ لقد عشت حياتي كلها ووجهي في الوحل .. ان الحياة تدفعني نحو كل شيء أكرهه ، وترغمني على البقاء في كل مكان أضيق به انني لم أر في حياتي انسانا يمكن أن أقتدى به .. ألا يوجد في هذه الدنيا شيء نظيف محترم ؟ انظري الى .. لماذا ذهبت ولوثت يدي بخنق ذلك الرجل ؟ لقد صبغت روحي برقعة سوداء لا يمكن أن تزول الا بأشد العقاب .. والعذاب ، فلماذا فعلت كل هذا ؟

وردت أوليبيادا قائلة :

ـ لا داعي لأن تيأس الى هذا الحد . انه لم يكن جديرا بالحياة ..

ـ انني لست يا ثسا .. وانما أحاول أن أبرر ما فعلت . كل انسان في هذه الدنيا يحاول تبرير سلوكه يريد أن يستمر في الحياة .. فيما عدا ذلك المحقق .. انه يعيش آمنا من كل شيء .. يعيش نظيفا مستقرا في غير حاجة لان يخنق أحدا بيديه

ـ مهلا يا فتاي الحبيب .. لسوف نرحل معا عن هذه المدينة في الوقت المناسب ..

فاستدار ايليا نحوها وقال :

ـ لا .. لن أرحل الى أي مكان اخر .. سوف أبقي هنا وأرى ما سوف يحدث ..

ونظرت أوليبيادا اليه وقالت عاتبة :

ـ انك لا تريد أن ترحل معي خوفا مني .. خوفا من أن أسيطر عليك بما أعرفه عنك . انك مخطيء يا فتاي الحبيب . انني لن أقبل أبدا أن أجرك ورائي رغما عنك ..

فهتف ايليا قائلا في دهشة :

ـ ما هذا الذي تقولين ؟

ـ لا تخف .. انني لن أرغمك على البقاء معي .. اذهب حيث شئت ..

فجلس بجوارها وأمسك يدها وقال :

ـ ما معنى هذا ؟ لماذا تقولين لي هذا ؟

فسحبت يدها بعنف وقالت :

ـ لانني اعرفك ، اعرف حقيقتك . انك انسان متكبر قاسي القلب

لا يمكن أن تغفر لي حياتي مع ذلك العجوز ، كما أنك لا تزال مشمئزاً من طريقتي في الحياة • ولست أشك في أنك تعتقد أن كل ما حدث كان بسببي ، ولهذا فأنت تكرهني

فقال ايليا بلهجة صادقة :

ـ هذا افتراء •• افتراء وكذب • انك غير مسئولة عن شيء • فأنا أعرف أن النساء النظيفات المحصنات السن لامثالي •• انهن أبعد الناس عني • انهن مقصورات على الاغنياء القادرين •• أما نحن فلا أمل لنا الا في نفايا النساء •• في اللاتي يعشن في الوحل •• في النساء المعرضات للدهس والبصق

فوثبت أولمبيادا وقالت بانفعال شديد :

ـ اذن دعني ما دمت تظن أنني من النساء المعرضات للبصق والدهس • أخرج من هنا •• أخرج ••

وطفرت الدموع الى عينيها الحمراوين من فرط الاهتياج وأردفت قائلة :

ـ انني أعيش في الوحل بمحض اختياري •• لأن فيه المال الذي يحقق رغباتي الذي سيجعلني أستطيع الصعود مرة أخرى الى حياة نظيفة • نعم •• انني أنوي أن أعيش حياة نظيفة محترمة • وقد ساعدتني على ذلك •• انني أعترف بهذا • واني أحبك لهذا السبب • ولا يهمني ان كنت قاتلا لعشرة رجال من طراز ذلك العجوز اللعين • وأنا لا أحبك فقط للمساعدة التي قدمتها الي ، وانما لانك معتز بكرامتك وكبريائك ـ لأنك شاب •• قوي •• وسيم •• أحبك لانك توبخني وتحمل علي وتكره طريقتي في الحياة •• انني لن أنسى لك هذا الجميل ما حييت •• بل انني على استعداد لأن أركع وأقبل قدميك

وقبل أن يتحرك ايليا من مكانه ، ركعت أمامه وقبلت ركبتيه وقالت :

ـ أشهد الله انني اخترت طريقي هذا لانقذ روحي •• ان الله يفضل ان اتمرغ في الوحل لكي اضمن بعد ذلك حياة نظيفة على ان أبقى طيلة حياتي متمرغة في هذه الاوحال • وعندما أصعد الى الحياة النقية ، فسوف أصلي وأبتهل من أجل الغفران • انني الآن غارقة في الاثم ، وما أظن أن دموعي طول حياتي يمكن أن تطهرني

وظلت تشهق بالبكاء وهي متشبثة بركبتي ايليا • وكان هو

يمسح بيده على شعرها ليهدىء نفسها • ولكنها استطردت تقول :

ـ اذا أخطأ الانسان مرة ، فهل يفيد أحدا أن يعيش المخطىء ذليلا طول حياته بسبب هذا الخطأ ؟ عندما كنت صبية في الرابعة عشرة من عمري ، تسلل زوج أمي الى مخدعي ليغتصبني •• وقاومته بعنف •• ولكنه انتصر على في مرة أخرى •• سقاني خمرا •• ونالني •• وكنت نقية ناضرة كالزهرة • وبكيت كثيرا على مصيري •• ولكنني عجزت عن المقاومة •• وأخيرا قررت أن أجعلهم جميعا يدفعون الثمن الغالي •• وأخذت أسرق أموالهم •• وأشرب الخمر •• وأتقزز من قبلاتهم •• لم يحدث يوما أني أحببت أو احترمت واحـــدا منهم •• حتى التقيت بك

ثم حاولت أن تنهض وتنتزع نفسها من ذراعي ايليا قائلة :

ـ دعني أنصرف •• دعني ابتعد عنك ••

ولكن ايليا ظل يعانقها ويقبلها بحرارة ، ويهمس قائلا :

ـ لا شيء يمكن أن أقوله لك •• الا هذا : ليس هناك من يهتم بنا • وعلينا ألا نهتم بغيرنا • واني سعيد بسماع ما قلته لي • انك في أعماق نفسك انسانة طيبة ، وأنا أحبك •• أحبك أكثر من •• أكثر من •• انني عاجز عن التعبير ••

وتعانق الاثنان بحرارة ، وأخذا يغمغمان همسا بآلامهما ••وقالت أوليبيادا بصوت كله اليأس :

ـ اننا لن نعرف معنى السعادة أبدا ••

ـ اذن فلنتحمل معا الشقاء •• اذا قرروا ارســـالنا الى المنفى ، فلنذهب معا • أليس كذلك ؟ ولكن الى أن يحين هذا الوقت فلنغرق آلامنا في الحب • انني لا أبالي الآن أن يلقوا بي الى النـــار مادمت سعيدا بهذا الحب الذي يربطني بك ••

والتهبت شفاهما من فرط القبل •• والتصق جسداهما في عناق حار ••

وعاش الاثنان في شهر عسل جديد •• ولكن كان هناك شيءبينهما كأنه الماء البارد الذي يفسد حـــرارة حبهما ، ومن ثم كان إيليـــا يستغرق في التفكير عندما يتبادلان الحديث حينا بعد حين • وكانت أوليبيادا تقول له عندئذ :

ـ ارفع رأسك يا فتاى الحبيب .. تأكد أنه لا يوجد في هـذا العالم انسان واحد نظيف اليدين

وكان ايليا يرفع رأسه فجأة ويقول بحدة :

ـ اسمعي .. انني لا أريد أن نتحدث عن هذا الامر مرة أخرى .. انني لا أفكر في الايدي النظيفة والاخـرى الملوثة .. وأيا كانت براعتك ، فانك لا تعرفين مدار أفكاري .. انني أفكر دائما في هذا : كيف يمكن للانسان أن يعيش نظيفا .. كيف يعيش دون أن يسيء الى أحد ، أما عن ذلك الرجل العجوز فلا أريد أن أسمع كلمة أخرى .. أتفهمين .. ؟!

ولكنها لم تكن قادرة على منع نفسها من بذل كل جهد ممكن لكي ينسى ايليا تلك الجريمة . فاذا طلبت منه أن ينساها ، غضب وأسرع بالانصراف . وعند عودته في اليوم التالي تستقبله باكيـة بعنف ، قائلة انه يعود اليها والى ذراعيها لانه خائف منهـا .. خائف من أن تكشف سره للشرطة ، وانها لا تريد هذا اللون من الحب القائم على الخوف . ثم تزداد اهتياجا فتنهال عليه بالالفاظ القاسـية وتضربه وتعضه وتخمشه وتقبل يديه وقدميه وتمزق ملابسها وتقف عارية أمامه تقول :

ـ ألا تراني متعة للنظر ؟ أليس لي أجمل جسم ، انني أحبك بكل ذرة في هذا الجسم ، بكل قطرة من دمي ، بكل درهم من لحمي .. مزقني اذا شئت ولكن لا تحتقرني أو تشـتري سـلامتك باصطناع الحب لي ..

وتختلج شفتاها باللهفة الى الحب ، وتلتمع عينـاها وتضيقان ، ويضطرب صدرها وهي تلهث وكأنما يشرئب نهداها للوثوب اليه ، وهنا يأخذها بين ذراعيه حتى يناله الاعياء . وعند عودته الى البيت، يفكر لنفسه : كيف يمكن أن تحتمل فتاة ملتهبة نابضة بالحيـاة كهذه ، لمسات يدين ملوثتين كيدي ؟ ويشعر بالاشمئزاز منها ، ويبصق على الارض ..

وفي ذات يوم ، بعد ثورة عاطفية كهذه تركته جالسا يمسح بيده على شعرها ، قال لها :

ـ لقد ازددت حبا لي منذ أن .. أن ارتكبت جريمتي !

ــ هذا صحيح ... وماذا في ذلك ؟ ..

ــ لا شيء . ولكنه عجيب .. ان هناك اناسا يفضلون الطعام الفاسد على الطازج هذا هو كل شيء .. ولكنه أمر عجيب ..

وأبتسمت اولمبيادا في شرود ، ولم تقل شيئا ..

***

وفي ليلة أخرى ، كان ايليا جالسا مع ياكوف في غرفته يتبادلان الحديث كالمعتاد . وكان ياكوف يحاول ان يتحدث عن الكتب التي قرأها ، وعن السعادة في الحياة ، والشقاء ، وعن مصير الروح بعد الوفاة، وكان ايليا كعادته يحاول ان يعتقد بأن خلاصة الفلسفة هي أن يعرف الانسان كيف يعيش في الحياة نظيفاً مستقرا متجنبا ايذاء الغير . وفيما هما على هذا النحو من الجدل ، اذا بهما يسمعان وقع اقدام مترنحة على السلم في الطريق اليهما . وما هي غير لحظات حتى فتح الباب ودخل برفشكا ــ والد ماشا ــ مترنحا يمسك الاكرديون بين يديه ، ثم انفلتت وراءه ماتيتزا ــ ابنة الليل المتسولة ــ مخمورة مثله ، تقول له :

ــ صفقة جميلة ايها المخمور ..

ــ الفضل لك أيتها « الخاطبة » .. السكيرة ..

وفيما كانت ماتيتزا ترسل ضحكة بلهاء ، قال ايليا ممتعضا :

ــ أين كنتما .. ؟!

وحملق ياكوف الى الاثنين في بلاهة ، بينما رد برفشكا قائلا بصوت مترنح :

ــ أين كنا .. أين كنا .. ها ها .. أين كنا يا ماتيتزا ؟ هـــلم نغنى ..

وقبل ان يرفع الاثنان عقيرتهما بالغناء المخمور ، قال ايليا بحدة :

ــ وأين ماشا ؟

ورد برفشكا وماتيتزا على هذا السؤال بالغناء العابث ، ولكن ايليا أمسك بكتف ماتيتزا وقال وهو يهزها بعنف :

ــ اين ماشا ؟ اين ذهبت بها ..

وقالت وهي تحاول أن تتخلص من قبضته :

ــ لن اقول لك شيئا


وفي ذات يوم ، بعد ثــورة
عاطفية كهذه تركته جالســـا
يمسح بيده على شعـرها ،
قال لها :
ـ لقد ازددت حبا لي منذ ..
ان ارتكبت جريمتي ! . .. .

وتمتم ايليا فى حنق :
ــ يبدو أن هذين الشيطانين باعاها ..
وفيما كان ياكوف يتلفت حوله فى فزع ، أردف ايليا قائلا لبرفشكا :
ــ أين ابنتك أيها السكير ؟! أين ماشا ؟
وقالت ماتيتزا بصوت ممطوط :
ــ ماشا ؟! لقد انتهت ماشا ..
وهتف ياكوف فزعا :
ــ هل سمعت يا ايليا ؟ ماذا نفعل الآن ..!
وفجأة استدار برفشكا نحوهما وقال بحدة :
ــ أخرجا من هنا .. ان هذه غرفتى .. وسوف أتزوج ماتيتزا الليلة ..
وقال ايليا باصرار :
ــ اننا لن نخرج حتى نعرف ماذا فعلتما بماشا .. ؟
وقال برفشكا :
ــ حسنا .. أخبريهما يا ماتيتزا .. قولى لهما اننا انقذنا ماشا من الوحل ...
وقالت ماتيتزا :
ــ لقد زوجناها يا ايليا .. زوجناها للبدال العجوز كيرنوف ... لتعيد اليه شبابه وتخدم ابنته من زوجته المتوفاة .. أتعرف ماذا أعطانا مقابل هذه الصفقة ؟ عشرة روبلات كاملة .. سكرنا بها .. ولكنه هددنا بالقتل اذا نحن اقتربنا من متجره فى يوم ما ..
وتمتم ايليا بوجه مربد :
ــ أيها الحيوانان ..!
وانفجر ياكوف باكيا ..



الفصل الثامن

المسكن الجديد

اضطر ايليا للبحث عن مسكن جديد بعد ان اشتدت الخصومة بينه وبين بتروشكا الخمار . ذلك أنه عاد ذات مساء الى بيت الخمار فعلم ان الرجل اختلف مع ابنه ياكوف وظل يضربه بقسوة حتى سقط الفتى وهو بين الموت والحياة ، ولم يلبث ان حمل الى المستشفى ولم يتمالك ايليا نفسه حين سمع هذا كله ، فاقتحم الحانة ، وهجم على بتروشكا وظل يوجه اليه اللكمات والركلات حتى سقط على الارض ، ثم غادر المكان من فوره ، باحثا له عن مسكن جديد

وعثر على المسكن فى خلال ساعتين .. غرفة صغيرة مفروشة بجوار المطبخ فى شقة صغيرة يقيم بها زوجان بلا ابناء . وفرجته عليها فتاة فى بلوزة حمراء صغيرة الجسم ، وردية البشرة ، ضاحكة العينين ، مدممة الشفتين .. وقد قالت له بصوت مغرد وابتسامة عذبة :

ــ ان ايجارها معتدل جدا .. خمسة روبلات فى الشهر فقط .. وهى كما ترى جيدة ، وجديدة الطلاء ، وتطل على الحديقة . وفى الصباح سوف أعد لك الشاى وعليك ان تحمله بنفسك الى غرفتك .

فقال ايليا :

ــ هل أنت الشغالة ؟ ..

ورفعت الفتاة راسها فى تعال وشموخ وقالت بجبين مقطب :

ــ اننى ربة البيت ..

فهتف ايليا فى دهشة وهو يرمق جسمها الصغير :

ــ أتعنين أنك زوجة ؟

وهنا ارسلت ضحكة رنانة عذبة وقالت :

ـ ما أعجبك ؟ حسبتني الشغالة اولا ، ثم أبيت أن تصدق انى زوجة .. !

واضحك ايليا بدوره وقال :

ـ ان لى العذر .. فانك تبدين كطفلة .!

ـ اذن ما رأيك فى انى متزوجة منذ ثلاثة أعـــــوام . وزوجى شرطى المركز ..

ورمقها ايليا بنظرة سريعة ، ثم ارسل ضحكة قصيرة دون أن يدرى لماذا .. وقالت هى :

ـ انك غريب الاطوار ايها الشباب .. هل اعجبتك الغرفة ؟

ـ نعم .. ايتحتم ان أدفع التامين ؟

ـ نعم ..

ـ حسنا .. سوف أحضر حاجياتى بعد ساعة ..

ـ يسرنى هذا .. انك تبدو شابا لطيفا مرحا ..

وهكذا استقر فى مسكنه الجديد ، شريكا فى شقة لاحد رجـــال الشرطة ! .. وكثيرا ما كان يضحك لنفسه كلما تذكر هذه المفارقة ..

***

وذهب فى اليوم التالى الى المستشفى لزيارة ياكوف . ولكن الممرضة اخبرته انه مستغرق فى النوم بعد ان قضى ليلة كاملة وهو يتوجـع . وفيما كان ايليا مترددا بين الانتظار او الانصراف ، اذا به يرى بافيل مقبلا فى دهليز المستشفى ومرتديا ملابس المرضى . فأسرع اليــــه هاتفا :

ـ بافيل ..؟ ماذا تفعل هنا ؟

ـ أوه .. ايليا .. وانت ماذا جاء بك ؟

واخبره ايليا بأمر ياكوف ثم قال وهو يفحص بنظراته وجـــه بافيل الشاحب :

ـ ماذا بك يا بافيل ؟

واضطرب بافيل برهة ثم قال هامسا فى خجل :

ـ مرض سرى ..

ـ ارجو الا تكون العدوى من فيرا !

ـ اذا لم تكن منها ، فممن تكون ؟

وهز ايليا رأسه وقال :

ـ لاشك أنني سأصاب بهذا المرض أيضا ، يوما ما .

ـ أرجو ان تنجو منه .. لقد تعذبت بسببه اسبوعين عذابا لايحتمل .. هذا فضلا عن عذاب الشعور بالوحدة في المستشفى .

ـ واين فيرا ؟ ..

ـ لا ادرى ..

ـ الا تأتى لزيارتك ؟

ـ جاءت مرة ثم طردتها .. لم استطع أن احتمل النظـر الى وجهها ..

فنظر ايليا الى وجه بافيل المريد ، ثم قال بعطف :

ـ يجب ان تكون منصفا يا بافيل .. ما ذنبها هي .. انها ضحية مثلك ..

ـ انني أشعر بالحزن الان من أجلها ، اذ عندما طردتها بكت .. بكت في صمت واستسلام .. واردت أن أبكي معها .. ولكن قلبي كان مسحوقا وكأن عليه كومة من الاحجار .. آه .. ايليا .. ليس لامثالنا مجال في هذه الحياة .

وقال ايليا وهو يبتسم في شحوب :

ـ لابد أن هناك خطأ ما في هذه الدنيا .. اننا لا نجد فيهـا الا القسوة والعنت والظلم .. ياكوف يعيش بائسا شقيا بسبب أبيه .. وماشا تباع للزواج برجل عجوز .. وماتيتزا تتسول بجسدها .. وها أنت ذا ..

ثم اردف قائلا وهو يضحك مرة اخرى :

ـ انا فقط الذي يحالفه الحظ .. ما اكاد اطلب شـيئًا حتى يتحقق ..

ـ الا زلت على علاقتك باوليمبيادا ؟

ـ نعم ..

ـ ارجو ان تبلغها تحياتي ..

وفي تلك اللحظة اقبل معاون المستشفى وطلب من ايليا الانصراف

***

وعاش ايليا مستقرا في مسكنه الجديد .. واخذ يهتم بحيـاة الزوجين اللذين يشاركانه المسكن . كانت الزوجة تدعى تاتيانا لازينا .

وكانت شابة فى الثانية والعشرين ، مرحة ، باسمة .. لا تكف عن الغناء والضحك .. وقد أخبرته بتاريخ حياتها بعد يومين من اقامته معهما ..

وكان يسمعها وهي تعد الافطار لزوجها في المطبخ اثناء شربه للشاى في الصباح .. وكثيرا ما يكون الباب بينهما مفتوحا فيراها في ميدعة العمل ، تروح وتجيء بنشاط وخفة .. وتنظر اليه بين الحين والاخر باسمة .. وقدقالت له ذات صباح :

ــ اننا قد لا تكون أغنياء .. زوجي وأنا .. ولكننا على قسط كبير من التعليم . لقد أتممت دراستي الثانوية .. وكذلك كيريك .. ثم التحق بالشرطة . الا اننا نريد ان نصبح اغنياء .. وهذا ماسيحدث .. وسوف ترى ومن حسن حظنا اننا بلا ابناء .. أنهم يكلفون الاباء الكثير من المال والجهد . وانا أقوم بالطهو وشراء الحاجيات من السوق ، أما أعمال المنزل فأنني استأجر فتاة للقيام بها نظير روبل ونصف روبل في الشهر . وبهذا اوفر اجر طاهية وطعامها واقامتها .. تعلم مني كيف تقتصد لتصبح من الاغنياء ذات يوم ..

وعندما كان ايليا يعود فى المساء ، تفتح له الباب ، فيراها نظيفة أنيقة ببساطة ، عذبة الابتسام ، طيبة الشذى . فاذا كان زوجها بالبيت اخذ يعزف على القيثارة ، بينما تصاحبه هي بالغناء بصوته عذب صاف كأنه تغريد البلبل . وفى امسيات اخرى كانا يلعبان الورق ، والرهان عدد معين من القبلات ! .. وكان ايليا يسمع كل شيء .. العزف .. والغناء .. ولعب الورق .. وطرقعة القبلات . وكان الزوجان يعيشان فى غرفتين : احداهما للنوم ، والاخرى للجلوس . وكان زوج تانيانا ــ كيرك أوتوتوموف شابا في السادسة والعشرين من عمره ، طويلا كبير الحجم ، كبير الانف ، طيب الوجه ، باهت العينين ، قصير الشعر .. وقد أحب ايليا من أول لقاء ، وكثيرا ماكان يدعوه لشرب الشاى في المساء

وكان ايليا يزداد حبا واعجابا بالزوجين كلما طالت اقامته معهما . كان كل شيء حولهما نظيفا محترما ينم عن السلام والهدوء والاستقرار وكانت تانيانا تحكي لزوجها بعد عودته من العمل عما حدث لها في يومها ، وكان هو يحكى لها ما حدث له فى يومه ، وكان ايليا يشعر ،

كلما طالت جلسته ، وحيدا بالغرفة ، بالاختناق .. فيخرج ويسير على غير هدى في الطرقات أو يذهب لزيارة أولمبيادا

وأخذت غيرة أولمبيادا تزداد يوما بعد يوم ، ومن ثم كان النزاع بينهما يزداد ، ولكنها لم تحاول يوما أن تشير من بعيد أو قريب الى مقتل العجوز بولكتوف . أما في حالات الصفاء والحب فكانت تحثه دائما على نسيان ذلك الحادث . ومن ثم كان ايليا يقول لها :

ـ لماذا لا ترهبينني بتلك الجريمة عندما نتشاجر ؟

ـ لانها لاشأن لها بيني وبينك . فاذا لم يقبضوا عليك ، فمعنى هذا ان الرجل لقى جزاءه العادل . انك لم تقتله لسبب ما ـ هذا ما تقوله دائما .. ومعنى هذا انك لم تكن الا اداة للاقتصاص منه

ويرسل ايليا ضحكة ساخرة تجعلها تقول :

ـ لماذا تضحك ؟..

ـ لا لشيء .. انني افكر فقط في ان كل انسان له عقل يستطيع أن يبرر كل تصرف أو يجد في كل تصرف اخر مأخذا

ـ انني لا أفهم ماذا تعني ؟ ..

ـ المسألة بسيطة .. انني أعيش على أمل ان اقيم لنفسي مكانا ثابتا في الحياة لا يستطيع ان ينال منه احد .. ولكنني كلما تلفت حولي ، وجدت أن هذا الامل لا يمكن ان يتحقق لي او لغيري

وبعد احدى المشاجرات ، امتنع ايليا عن زيارتها بضعة ايام . وفي ذات يوم ، تلقى منها الرسالة التالية :

« وداعا يا فتاي الحبيب .. وداعا الى الابد . اننا لن نلتقي بعد اليوم أبدا . فلا تحاول أن تبحث عني ، لانك لن تعثر علي . لسوف أرحل عن هذه المدينة اللعينة على السفينة التي ستبحر اليوم . لقد تحطمت روحي الى الابد على صخرة الحياة في هذه المدينة . انني هاربة منها ، ولن اعود . فلا تفكر في ، ولا تنتظر عودتي . انني اشكرك من كل قلبي لما قدمت الي من خير ، وسوف نسي كل شر صدر عنك . ومن حقك ان تعرف أنني لست راحلة بمفردي . انني ذاهبة مع الشاب اناتين الذي يطاردني بحبه منذ مدة طويلة ويقسم ان حياته ستتحطم اذا لم أعش معه .. اذا لم اتزوجه وقد قبلت الزواج به لانجو من هذا الهوان الذي اعيش فيه . وسوف نذهب الى مدينة بحرية يمتلك

فيها آل اناتين عدة مصايد للاسماك . انه شاب بسيط طيب القلب .. واحمق .. ودليل حماقته انه يريد الزواج بى ..

« وداعايا فتاى الحبيب .. اننى اشعر انتى عرفتك فى حلم جميل، فلما صحوت منه لم أجدك بجانبى . آه لو تعلم كم اتعذب من اجلك ؟ انتى أقبلك واقبلك .. ولن أنسى حبنا يوما .. ولكننى أرجو الا تزهو بنفسك كثيرا .. فما نحن الا مخلوقات بشرية تعسة .. لقــــــد اصبحت فتاتك اولمبيادا حزينة فى النهاية .. ان قلبها قــــد انكسر .. ولم يعد لها فى الحياة أمل او هدف . واخيرا ارجو ان تضـــع فى اصبعك الخاتم الذى ازفقه بخطابى هذا حتى لا تنسانى .. »

***

ولما فرغ ايليا من قراءة الخطاب ، مضى الى النافذة وراح يطل منها وقد امتلأت عيناه بالدموع



الفصل التاسع

ابتسامة القدر

قالت تانيانا ذات صباح لايليا بعد أن اعتادت آن تدخل غرفته :

ــ إنك مضطرب يا ايليا في هذه الايام

ــ أحقا ؟..

ــ وعاجز عن اخفاء مشاعرك ..

ــ وما هي مشاعري ؟.

ــ هل أقول ؟..

ــ نعم ؟ ..

ــ انك حزين من أجل أولمبيادا .. لقد قرأت رسالتها ..

وخفق قلب ايليا بعنف ! وفكر في تلك اللحظة في رزم الاوراق المالية التي أخفاها في الغرفة .. وخشي ان يرفع عينيه الى الفجــوة التي اصطنعها في أعلى النافذة ، وراء الاطار الخشبي ، ثم وضع فوقهـــا شريحة صغيرة من الخشب .. وكلما رأى تلك الشريحة في مكانهـــا ادرك ان أحدا لم يمس النقود .. وأخيرا قال وهو يتظاهر بالتفكير ويرفع عينيه الى أعلى :

ــ انك على حق ..

واطمأن قلبه حين رأى العلامة في مكانها فوق النافذة ..

وسمع الاثنان احفيفا في الحديقة الصغيرة ، فاطلا من النافذة ، ولكن تانيانا قالت :

ــ لا شيء .. انها هبات الريح .. اسمع .. يا نزيلي العزيز .. انني قد أكون صغيرة السن ، ولكنني لست حمقاء .. هل تحب أن تسمع نصيحة مني ؟!.

ـ نعم ..

ـ اذن مزق هذه الرسالة وانساها ، اذا كانت قد هجرتك ، فقد احسنت صنعا . انك لا زلت أصغر من أن تفكر في الزواج .. لايزال الطريق امامك طويلا حتى تحتل مكانك المناسب في الحياة ثم تتزوج ويكون لك بيت خاص . انك شاب قوى ، وفي مقدورك ان تعمل كثيرا .. وانت ايضا وسيم ، وكل فتاة تتمنى أن تكون زوجة لك . ولكن لا تقع في حبائلهن .. اعمل وكافح واكسب وادخر وافتح لنفسك متجرا .. ثم تزوج . ان كل وسائل النجاح مهيأة لك .. انك وادع ، ولا تشرب الخمر ، وليس هناك من تعوله ..

وكان ايليا ينصت وهو مطرق الرأس . ولكنه كان يتمنى لو استطاع أن يضحك عاليا . واستطردت تلتيانا قائلة بلهجة الشخص المجرب :

ـ لا داعي لان تحني رأسك . لسوف ينتهي كل شيء . ان الحب لمرض .. لايلبث ان يبرأ الانسان منه . لقد احببت ثلاث مرات قبل الزواج . وفي كل مرة كنت اريد ان اقتل نفسي بعد فشلي في الحب ولكني الان أضحك ساخرة من أفكاري ولما قررت الزواج من الرجل المناسب ، تزوجت كيرك .. ثم أحببته .. ولا عجب في هذا .. فكثيرا ما ينمو الحب بعد الزواج

وظل ايليا ينصت في اهتمام واحترام وهو يلقي بنظراته الى وجهها الجميل وجسمها الصغير الملفوف .. ويفكر : يا لها من ذكية بارعة .. يا لها من زوجة نموذجية في كل شيء .. ليته يعثر على زوجة مثلها ..!

ولما فرغت من حديثها ، انحنى لها باحترام وقال :

ـ شكرا على عطفك ... لن انسى نصائحك هذه ، لقد افادتني كثيرا

فأرسلت ضحكة قصيرة وقالت :

ـ أحقـــا ؟!..

ثم تعلقت نظراتها في لحظة خاطفة بنظرات أيليا واردفت قائلة :

ـ طاب يومك ..

ثم استدارت وغادرت الغرفة بخطوات رشيقة متوثبة كأنها خطوات فتاة صغيرة سعيدة بالحياة

***

واخذ ايليا مع كل يوم يزداد حبا للزوجين الشابين . لقد رأى من تصرفات رجال الشرطة ما جعله يكرههم بكل قلبه ، ولكن كيرك اثبت ـ رغم غبائه ـ أن بين هؤلاء الشرطيين اناسا طيبين جديرين بالحب والتقدير . وكان ايليا يراه أقرب الى أحد العمال منه الى رجل شرطة . كان الجسم في البيت ، وكانت تانيانا العقل المفكر . ولم يكن لارائه في البيت أية قيمة ، كما انه لم يكن يمضي فيه غير فترات قليلة في المساء وفي بكور الصباح . اما تانيانا لازينا فقد اخذت ترفع الكلفة بينها وبين ايليا مع مرور الزمن . وكانت تطلب منه ان يأتى لها بأخشاب الوقود ، وبالماء ، وان يحمل دلو المياه المستعملة لتفريغها فى الخارج . وبقلب مفعم بالسرور كان ايليا يقوم بهذه الاعمال كلها وما هى غير فترة وجيزة حتى أصبحت من الواجبات المنوطة به . وسرعان ما استغنت ايليا عن الخادمة الا يوما واحدا فى الاسبوع .

وكان الزوجان يستقبلان بين الحين والاخر بعض الضيوف . وكان بينهم نائب مأمور المركز ، وهو رجل كان يدعى كورساكوف ، نحيل الجسم جدا ، مفتول الشارب ، يضع على عينيه نظارة سوداء ، ويدخن السيجار الاسود . ولم يكن يتحدث الا عن موضوع واحد .. مركبات الركوب ... وكراهيته لها ، ورغبته فى تخليص المدينة منها . ولم يحدثه قط أن سمعه ايليا يتحدث عن موضوع آخر

ومن هؤلاء الضيوف أيضا كان السيد جريزلوف ، مدير الملجأ بالمدينة . وكان رجلا متحفظا قليل الكلام ، شغوفاً بترديد أغنية « على شاطيء البحر الازرق الواسع » . وكانت زوجته سيدة طويلة القامة ، ضخمة الجسم ، كبيرة الاسنان ، لا تكف عن التهام الحلوى والفطائر ، مما كان يثير الغضب فى نفس تانيانا فتقول :

ـ إنها تتعمد التهام الحلوى التى أقدمها لتغيظنى ..

من هؤلاء الضيوف أيضا كانت الكسندرا تراكينا وزوجها ، وكانت سيدة طويلة نحيلة حمراء الشعر .. أما زوجها فكان يتحدث همسا ، دائما ، بسبب اصابة فى حلقه . ومع هذا لم يكن يكف عن الحديث

كان ايليا ـ وهو في غرفته ـ ينصت باهتمام الى آرائهم عن الحياة.
وكان ما يسمعه يثير في نفسه الحيرة والارتباك • ذلك أن هؤلاء الناس كانوا ـ كما يلوح له ـ قد عرفوا كل شيء ، وحلوا جميع مشكلاتهم ، ولم يبق أمامهم الا أن يحتقروا أولئك الذين لا يرتفعون الى مستواهم

وفي بعض الاحيان كان الزوجان يدعوان ايليا لشرب الشاى معهما • وفي هذه الحالة كانت تانيانا تضحك وتلقي بالفكاهات ، وكان زوجها يتحدث عن أمنيته في الثراء ، وفي شراء منزل خاص به • ثم يأخذ الزوجان يتحدثان عن كل ما يتمنيان أن يحققاه اذا ظفر بالثروة ، وكان ايليا ينصت الى أحاديثهما في هدوء أحيانا ، ولكنه كان يتمنى لو انهال عليهما بالضرب عندما يكون عائدا بعد جولة في السوق غير موفقة • الا أنه كان يكتفي بالانصات اليهما في صمت وهو يخشى أن ينطق بكلمة حتى لا يجرح مشاعرهما

وفي ذات ليلة نظر الى كيرك بحدة ، أثناء لعب الورق ، وقال له :

ـ ألم تقبضوا على الرجل الذى قتل المرابى العجوز ؟

ورد كيرك في شرود ذهن :

ـ أتعنى بولكتوف ؟! ••

ثم يردف قائلا وهو ينظر في أوراق اللعب :

ـ بولكتوف ؟ لا •• وما شأني أنا •• انني لست مكلفا بالبحث عن قاتله •• فليذهب معه الى الجحيم •• ان كل ما أريده الآن ولدباستوني ••

ولكن ايليا يقول في الحاح :

ـ لا شك أن مرتكب الجريمة شخص قوى الاعصاب حاد الذكاء••

ـ طبعا •• طبعا •• عليه اللعنة ••

ـ تصور مدى جرأته وهو يرتكب جريمته في وضح النهار •• !

ـ انها ليست جرأة ، وانما حظ

فنظرت تانيانا الى زوجها في دهشة وغمغمت قائلة :

ـ أتقول عن الجريمة حظا ؟ ••

ـ لا •• أعني الهرب من العدالة ••

ثم أردف قائلا كأنما يحدث نفسه :

ـ وان كنت حتى الان لم أر أحدا يهرب من عدالة الارض أو عدالة السماء .

ونظر ايليا الى الزوجين .. ولما رأى امارات السعادة على وجهيهما، شعر بالنفور من الاستمرار فى الحديث عن الجريمة

وازداد الزوجان تعلقا بايليا على مر الايام .. وفى ذات ليلة ضربه كيرك على كتفه مداعبا وقال له متبسطا :

ـ انك تضيع حياتك هباء أيها الصديق .. ان شابا قويا لطيفا مثلك يجب أن يقوم بعمل أكبر من بيع السلع فى الطريق .. ان الشرطى الذكى لا يقبل أن يقضى حياته شرطيا عاديا ..

ثم أخذت تانيانا تسأله ـ تفصيليا ـ عن عمله .. بكم يبيع فى اليوم ، وما مقدار أرباحه ، ونسبة الربح فى كل سلعة ، ومدى الاقبال عليها ، وكل شيء ، وكان ايليا يزداد احتراما لتانيانا كل يوم ، ويعجب من قدرتها على تهيئة هذه الحياة النظيفة المستقرة لها ولزوجها بمثل ذلك المرتب البسيط الذى يتقاضاه كيرك ..

وفى ذات ليلة قالت له :

ـ ان لدينا مشروعا نعتقد فى نجاحه ونحب أن نتحدث معك بشأنه جديا

وضحك كيرك وقال :

ـ ان لزوجتى هذه الصغيرة عقلا كبيرا يا ايليا ..

وقالت تانيانا :

ـ لقد أدخرنا مبلغا من المال .. نحو ألف روبل .. وهو فى البنك الآن يدر علينا ربحا قدره أربعين روبلا فى السنة .. أى بنسبة أربعة فى المائة .

وقال كيرك وهو يضرب المائدة بيده :

ـ وهذا الربح لا يكفى .. اننا نريد المزيد ..

وأسكتته زوجته وقالت :

ـ انه يكفينا ويزيد . ولكننا نريد أن نساعدك لتبدأ حياتك من جديد ، اننا على استعداد لأن نقرضك هذا المال نظير ايصال استلام ، كأمانة ، لكى تفتتح به متجرا للخردوات ، ثم نتقاسم الارباح .. ما رأيك ؟!

وأطرق ايليا برأسه ، وشعر بالدماء ترتفع الى وجهه ، وخشى أن يرفع عينيه اليهما فيدركان مدى ما كان يشعر به من سعادة في تلك اللحظة • ان أمل حياته كلها يضيء أمامه فجأة •• أمله في أن يصبح مالكا لمتجر خردوات •• متجر نظيف محترم يتعامل مع اناس نظفاء محترمين

وقالت تانيانا في رفق :

ــ فكر في هذا الامر متمهلا •• وقلبه على جميع النواحي ، وانظر اليه من جميع الزوايا •• فاذا تأكدت من قدرتك على تنفيذ هــذا المشروع فسوف يكون المبلغ بين يديك عند الطلب

وقال ايليا ببطء :

ــ يمكنني أن أضيف الى هذا المبلغ ألف روبل أخرى •• ابن عمي وعدني باعطائي هذا المبلغ عندما أشرع في افتتاح متجر خاص بي ••

وهتف الشرطي كيرك قائلا :

ــ مرحى •• مرحى ••

وقالت تانيانا :

ــ اذن فأنت موافق ؟!

وصاح زوجها :

ــ لا شك أنه موافق •• لنحتفل الليلة بنجاح المشروع •• لنشرب شمبانيا •• شمبانيا حقيقية وليست مزيفة

وخيل الى ايليا أنه يرى في وجهي هذين الزوجين ابتسامة القدر بعد طول عبوس ••



الفصل العاشر

الغرام الجديد

أخذت تانيانا تتحدث مع ايليا عن تفاصيل مشروعهما الجديد بضعة أيام . وكان يبدو من حديثها أنها على دراية كبيرة بتجارة الخردوات وكأنها عاشت طيلة حياتها تتجر فيها . وكان ايليا يبتسم وهو ينصت اليها ويتمنى في قرارة نفسه لو استطاع أن يبدأافتتاح المتجر في اليوم التالي ، ومن ثم كان يوافق على كل اقتراحاتها دون أن يفهمها

وظهر له في النهاية أنها أعدت كل شيء ، حتى اختيار المكان المناسب : وكان مكانا مثاليا بالنسبة له . حانوتا له غرفة خلفية ملحقة به وفي حي من أحياء المدينة المحترمة النظيفة

وبهذا الاحساس الطاغي من البهجة ، ذهب لزيارة صديقه في المستشفى . ووجد بافيل في حالة ابتهاج أيضا . اذ قال له بمجرد أن رآه :

ـ لسوف أخرج غدا . تلقيت رسالة من فيرا . وهي غاضبة مني .. تلك البغي ! ..

وقال له ايليا ناصحا :

ـ كن على حذر بعد ذلك .. اياك والعدوى مرة أخرى .

ـ لا تخف .. ان المسألة الآن هي : اذا قبلت فيرا الزواج بي ، فلن يحدث الا كل خير .. واذا رفضت ، فليس لها عندي غير السكين .

وسرت في جسم ايليا رعدة وقال :

ـ حذار ان تفعل شيئا من هذا القبيل يا بافيل !

ـ انني مصر على هذا . انني لا أستطيع الحياة بدونها . ويكفي

ما فعلته بي ومن حقي أن أعيش معها في أمان وسلام • وغدا سأستقر على أمر •• اما هذا أو ذاك •

ونظر ايليا اليه برهة ، ثم قال وقد احمر وجهه :

ـ بافيل •• لقد حالفني الحظ أخيرا ••

ثم سرد عليه مشروع المتجر بايجاز •• وقال له بافيل متنهدا :

ـ انك شيطان سعيد الحظ يا ايليا !

وأرسل ايليا ضحكة قصيرة وقال :

ـ شكرا على هذا الثناء ! ••

ـ انني لا أقول هذا مجاملة •• وانما هي الحقيقة ••

ولما أطرق برأسه في ذلة ، قال له ايليا :

ـ لقد أردت أن أشركك معي في بهجتي كما اشتركنا معا في بؤس الحياة

فهز بافيل رأسه قائلا :

ـ سمعت ان الحظ السعيد كالمرأة ، لا يشترك في زواجها اثنان !

فهتف ايليا قائلا :

ـ هذا غير صحيح •• ما عليك الا أن تذكر لي أملك الذي تريد أن تحققه وسوف أساعدك •• هل تريد أن تفتتح حانوتا للسباكة ، أو مطبعة صغيرة ؟ •• اخبرني بما تريد وسوف أقدم اليك المال اللازم

ونظر بافيل اليه في دهشة الذي لا يصدق أذنيه ثم هتف قائلا وهو يمسك يديه : « ماذا ! ! •• »

ـ انني جاد فيما أعرض عليك يا بافيل ••

ولكن بافيل هز رأسه وقال بارتياب :

ـ ان هذا لا يحدث في الحياة •• انني لا أصدق •• لا أصدق ••

ولما استطاع ايليا أن يقنعه ، عانقه بافيل قائلا :

ـ شكرا يا صديقي •• شكرا •• انك تنتشلني من هاوية سحيقة •• ولكن •• انصت الى • انني لا أريد أن أمتلك حانوت سباك •• اللعنة على جميع الحوانيت •• كفاني ما لقيت منها • ولكن اعطني المبلغ الذي تريد أن تمنحه لي وسوف أصحب فيرا وأرحل عن هذه المدينة اللعينة • لسوف نذهب الى مدينة أخرى وأبحث عن عمل جديد ••

فقال ايليا :
ــ من الافضل أن تكون سيد نفسك ..
ــ انني لا أصلح .. لا يمكنك أن تضع جلد أسد على حمار وتقول انه أسد ..
ــ حسنا .. انك أدرى بمصلحتك .. تعال غدا وخذ المبلغ منى . والآن سأذهب لارى ياكوف .. كيف الحال بينكما ؟ ..
فهز بافيل كتفيه وقال :
ــ ان ياكوف شاب غريب الاطوار لا يكف عن الثرثرة حول الروح والجسد وماذا بعد الموت .. وما الى هذا اللغو كله
وقال ايليا في صوت خافت كأنما يحدث نفسه :
ــ انه شيطان سيء الحظ ! ..
وهز بافيل كتفيه وقال :
ــ كلنا مثله .. وانني أكرر لك الشكر أيها الصديق ..
وذهب ايليا الى غرفة ياكوف فوجده راقدا على ظهره محملق العينين شارد الذهن . فقال له :
ــ لا بأس .. انني لا استطيع ان أبقى مريضا كما أشاء .. حتى هذه النعمة محرمة علي لقد حضر أبي أمس وقال انه اشترى بيتا جديدا وسيفتتح حانة أخرى وسيعهد الى بادارتها .. وقد تزوج امرأة قصيرة بدينة .
وأراد ايليا أن يخبره بما ناله من حظ سعيد ، ولكنه لم يستطع . وعاد ياكوف يقول :
ــ لو كان في مقدوري أن أموت ! ان الموت أصبح لي أمنية غالية . كثيرا ما رقدت وفكرت في جمال الموت . ان الملائكة ، اللطاف يمكنهم أن يجيبوا على كل أسئلتي
ثم أردف قائلا :
ــ هل رأيت ماشا يا ايليا ؟!
ــ لا .. ان رأسي لا يستطيع أن يحوي كل شيء ..
ــ تعني قلبك .. لا رأسك ؟ ..
وشعر ايليا بالارتباك ، ولم يقل شيئا ..
وقال ياكوف وهو يبتسم في شحوب :

ـ على الانسان ان يكون له قلب فولاذى ، واعصاب فولاذية لكى يستطيع الاستمرار فى هذه الحياة ..

ثم استطرد يقول حين سدر آيليا فى صمته :

ـ أما أنا ، فمثل الزجاج بين حجرين .. كلما تحركت اصبت بشرخ أو بكسر ..

وقال ايليا بذهن شارد :

ـ انك تحب الشكوى والتذمر يا ياكوف ..

ـ وأنت ؟ ..

فهز ايليا كتفيه ثم قال وهو يستدير ليخرج :

ـ أنظر الى حالة بافيل ..

ـ أننى لا أحبه ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لا أدرى .. لا أشعر نحوه بحب .. وكفى ..

ومرة أخرى هز ايليا كتفيه وقال :

ـ لقد حان وقت انصرافى ..

ومد ياكوف يده مصافحا وقال :

ـ أرجوك .. بحق الله ، أن تسال عن ماشا ..

ـ سأفعل ...

وخرج ايليا من المستشفى وهو يتنهد ..

وعاد الى باب المسكن فى تلك الليلة متأخرا . ومن ثم كان يشعر بالخجل وهو يضغط برفق على الجرس . لقد أحس ، من هـدوء المسكن ، أن الزوجين مستغرقان فى النوم . ولكنه فوجىء بالبـاب يفتح بسرعة ، واذا تانيانا فى قميص النوم الابيض تقف وتفسح له الطريق قائلة :

ـ أدخل بسرعة واغلق الباب .. ان الجو بارد ، وزوجى لم يحضر بعـد ..

وغمغم أيليا قائلا فى خجل :

ـ انني آسف ..

ـ لقد تأخرت كثيرا .. أين كنت ؟

وأغلق ايليا الباب ، واستدار ليرد على سؤال تانيانا .. وفوجىء

بها واقفة أمامه بصدرها العاري النافر .. وبدلا من أن تتراجع عنه ، تقدمت نحوه . ولم يستطع هو أن يتراجـــع لان البـــاب وراءه . وأرسلت هي ضحكة رقيقة .. جذابة .. ورفع ايليا يديه ووضعهما على كتفيها برفق وهو يشعر بالخجل أمام هذه المرأة الجميلةالصغيرة، وشبت هي على قدميها وطوقت عنقه بيدين حارتين وتمتمت بصوت كتغريد الطيور :

ــ ماذا تقصد من بقائك كل هذه الساعات في الخارج .. ألا تجد هنا ما يغنيك عن الخارج يا حبيبي الوسيم !

وخيل الى ايليا أنه يعيش في حلم جميل وهو يتلقى قبلات تانيانا الثارية ، ويشعر باختلاجات جسدها وهي تلتصق به في عاطفـــة مشبوبة

واستيقظ في صباح اليوم التالي وقلبه ملء بالخـــوف . كيف يمكنه بعد ما حدث أن ينظر في وجه كيرك ؟ لشد ما يشعر بالخجل مع الخوف ؟

وفكر لنفسه : لو كان بيني وبينه عداء !! لو كنت فقط أكرهه ؟ أما أن يحدث هذا كله بلا أدنى سبب أو مبرز ، انه شيء لا يمـــكن أن يطاق . وخامره احساس بالعداء نحو تانيانا . وأيقن أن كـيرك سوف يشعر بخيانة زوجته ان عاجلا أو آجلا

وعاد الى تفكيره :

لقد ألقت بنفسها علي .. ولا شك ان هذا يرضي غزور الرجـــل في نفسي . وكيف لا وقد ظفرت بعواطف امرأة حقيقية .. امرأةمن المحصنات .. امرأة نظيفة .. متعلمة وزوجة لرجل محترم . لا بد انني أتمتع بميزة ما .. حقا ان ما حدث شيء مخجل ، ولكنني لست صخرا . ماذا كان بوسعي أن افعل وأنا أتعرض لهذا الاغراء ؟!

ولكن أفكاره لم تلبث أن تحولت الى مجرى آخر :

ها أناذا أدفع الى مأزق جديد ! فهل انا الملوم ؟ انني كنت احترمها كأخت . لم أفكر لحظة واحدة في اشتهائها كامرأة ــ ومع ذلك .. أنظر ماذا حدث ؟!

وبعد برهة أخرى اختلطت الافـــكار في نفسه ، ولم تلبث أن انحسرت أمام الاحساس بالبهجة لدخوله هذا العالم الجديد .. العالم

النظيف .. ! العالم البعيد عن الشوارع وبنات الليل
ولكنه لم يلبث أن تساءل : هل يمكن أن يكون مثل هذا العالم نظيفا؟ وقرر ان يبقى فى فراشه الى ساعة متأخرة من الصباح ، أو — على الاقل حتى يخرج كيرك الى عمله

ولم يلبث ان سمعه وهو يقول بعد ان قبل زوجته بضع مرات :
— ما رأيك فى كرات اللحم المفروم للعشاء هذه الليلة ياحبيبتى ؟ أكثرى من اللحم فيها واسلقيها ثم قمريها حتى تتورد كخديك ... وحذار ان تبخلي بالفلفل والبهار !
وقالت تانيانا بحرارة :
— انني أعرف ماذا تحب من الطعام يا زوجي الحبيب . والان اسرع بالذهاب الى عملك والا تأخرت ..
وجفل ايليا حين سمع طرقعة قبلتها لزوجها ! يا للعار ؟ انه موقف مزر ، ولكنه لا يخلو من طرافة !
وما كادت تانيانا تغلق الباب وراء زوجها حتى هرعت الي غرفة ايليا ووثبت الى جانبه بالفراش وقالت ملهوفة :
— قبلني .. قبلني يا حبيبي الوسيم
فقال ايليا فى قطوب :
— لكن قبلة زوجك لا تزال على شفتيك !
فهتفت بابتهاج وهي تثب وتسدل الستائر على النافذة :
— ما هذا ؟ أهي الغيرة ؟ مرحى .. مرحى .. ان الغيرة شيء رائع .. انها تلهب عواطف الرجل ...
— انني لم أقل هذا بدافع الغيرة
فوضعت كفها الرقيقة على شفتيه ، وقالت :
— كفي حديثا ..

***

وقال ايليا وهو ينظر اليها بابتسام :
— انك مخلوقة بالفة الجراة . من يصدق انك تفعلين هذا كله تحت أنف زوجك ؟!
فبرقت عيناها المائلتان الى الاخضرار ، وقالت :
— ليس فى هذا شيء غريب ! ان النساء الدميمات او المريضات هن

فقط اللاتي لا يبحثن عن مغامرات الحب !.

ثم راحت تبرر سلوكها وتقص عليه انباء الزوجات اللاتي يخدعن ازواجهن ، وكلما استطردت في حديثها ، ازداد ايليا شعورا بأن ذلك العالم النظيف الذي يحلم به ليس الا عالما وهميا لا وجود له

ولكنه لم يسعه ، وهو يشرب وينصت الي حديثها ، الا ان يفكر في اوليبيادا . لقد ادرك فجاة ان اوليبيادا ـ المحرومة من التعليم ومن حياة الاستقرار والزواج ـ كانت أفضل كثيرا من هذه المراة .... كانت اكثر رقة وعطفا واتزانا .. كانت بسيطة .. وصريحة .. ولا تزهو بما ترتكب من اثام ، ولا تبرر أخطاءها .. انما تطلب الغفران دائما !

وفي النهاية قال وهو يغتصب ضحكة جوفاء :

ـ لم أكن أتصور أن يحدث هذا في وسط عائلي نظيف ..

ـ ان هذا يحدث في كل مكان .. وفي كل وسط .. بين الفقراء ، وبين الاغنياء ، بين الجهلة ، وبين المتعلمين .. انه

ثم وضعت يديها على كتفه وقطعت حديثها بضحكة وقالت :

ـ لماذا تحملق في وجهي هكذا ؟ هل تشمئز من حديثي ..

ـ انني لا احملق ! ولكنني افكر فقط في ان ما تقولينه قد يكون حقا ، ولكنه ليس لطيفا .. ولا نظيفا ..

فانفجرت ضاحكة وقالت :

ـ لماذا ؟ اشرح لي وجهة نظرك ؟

ولم يدر ايليا ماذا يقول ، ولكنه تساءل فقط :

ـ هل معنى هذا انه لايوجد في هذه الحياة شيء نقي أصيل ؟

وابتسمت قائلة :

ـ يالك من مسكين ؟ هل هناك أكثر اصالة من الحب بكل انواعه؟ والان .. حدثني عن أول مغامرة لك مع النساء !

واثارت هذه الذكرى الشعور بالخجل والاشمئزاز في نفس ايليا .. وقال :

ـ ينبغي ان تخجلي من توجيه مثل هذه الاسئلة

ولكنها ضحكت .. وتعلقت به ، وانهالت على شفتيه بالقبل ..

وهكذا ظلت معه .. كلما ادركت انه ضيق الصدر ، مشمئز من الموقف ، اسرعت واثارت فيه الاحساس بالرجولة ، والهبت دماءه ، واذابت بلهيبها كل احساس اخر بالاشمئزاز منها او الكراهية

الحلم يتحقق

بعد عودة ايليا الى البيت ـ ذات يوم مساء ، وكان يشرف على أعمال النجارين فى المتجر الجديد ، فوجىء بتاتيانا تقول له :

ـ أن سيدة تدعى ماتيتزا تنتظرك منذ ساعة في المطبخ

وهتف ايليا حين رأى ماتيتزا تنهض بتثاقل لاستقباله :

ـ ماتيتزا . . ؟ الا زلت على قيد الحياة . .

فردت ماتيتزا قائلة بوجه جامد التعبير :

ـ حتى الخنازير تحيا على القمامة . .

ونظر ايليا اليها فى اشفاق ورثاء . كانت ترتدى ثوبا ممزقا ، وتعصب رأسها بمنديل حائل اللون ، ولا تضع فى قدميها شيئا . وكانت تنقل خطواتها ببطء شديد وهى فى طريقها الى غرفة ايليا . وكانت تقول :

ـ انني سأعجز بعد قليل عن المشى . . أى عن التسول . . ومعنى هذا النهاية !

وقال لها بعد ان جلست :

ـ كيف تعيشين يا ماتيتزا . ؟

ـ باستجداء كسرات الخبز عند أبواب البيوت والكنائس . . ولكننى لم آت للاجابة على هذه الاسئلة . . لقد جئت لاحدثك عن ماشا . فأرجو الا تكون قد نسيتها بعد أن أصبحت من الاثرياء . .

فقال ايليا بسرعة :

ـ ماذا عنها ؟ . . ماذا جرى لها . ؟

ـ اطمئن . . انها لم تشنق نفسها بعد . .

— أرجوك ان تتكلمي .. انني لست المسئول عما حدث لها .. فانت التي بعتها ..

فأومأت ماتيتزا برأسها وقالت :

— نعم .. أن احساسي بالذنب هو الذي دفعني للحضور اليك

ثم تنهدت وراحت تسرد عليه مأساة ماشا .. فذكرت له كيف يغار عليها زوجها العجوز غيرة عمياء ، وكيف يسجنها بمفردها بعد ان أرسل ابناءه الى ملجأ ، وكيف انه يعذبها ويضربها كلما عجزت عن الاستجابة لرغباته الوحشية ، وكيف هربت مرتين ولكن رجال الشرطة كانوا يعيدونها اليه ، وكيف راح يستعمل معها الوسائل الوحشية في تعذيبها دون ان تجد المسكينة من يدافع عنها أو ينقذها

وقال ايليا بغضب :

— كل هذا نتيجة ما فعلته بها .. انت وبرنشكا ..

— كنا نحسب اننا نخدمها ونهيىء لها حياة مستقرة ..

— وماذا تريدين مني أن افعل ؟..

— انك تقيم مع رجل شرطة . ورجال الشرطة هم الذين يقبضون عليها .. قل لهم أن يرحموها ويمتنعوا عن اعادتها الى زوجها . ليتركوها تهرب .. ألا يوجد مكان تهرب اليه في هذه الدنيا ؟

ثم نهضت وأردفت قائلة :

— وداعا .. ان أيامي أصبحت معدودة .. شكرا على كل شيء ايها الرجل الغني .. النظيف

وبعد خروجها ، اسرعت تاتيانا الى ايليا وعانقته قائلة :

— أهذه هي غرامك الاول ؟!

فأزاح ايليا ذراعيها عن عنقه وقال بحزن :

— انها تحتضر .. ولكنها تحاول ان تؤدي اية خدمة نحو الذين تحبهم ..

فنظرت اليه وغمزت بعينها قائلة :

— ومن هم الذين تحبهم ؟!..

— مهلا ياتاتيانا .. مهلا .. ليس هذا وقت المزاح ..

وبعد أن سرد عليها مأساة ماشا ، قال لها :

— والان .. ماذا ينبغي ان افعل ؟

ــ لا شيء .. ان القانون يمنع اى انسان من التدخل بين الزوج وزوجته ..

ولما رأته يقطب جبينه بعنف ، اسرعت تقول :

ــ عليها بالصبر .. انه عجوز .. وسوف يموت عاجلا ، وعندئذ تتحرر منه وترث جانبا كبيرا من امواله ، وتتزوج مرة اخرى وتذوق طعم السعادة ، ما رأيك فى هذا الحل ..

ثم عادت تعانقه وتقول له :

ــ عليك ان تنفض يديك من اصحابك هؤلاء القذارى . انهم ليسوا من طرازك . ولاشك انهم يسببون لك الحرج .. انهم حثالة وقذارة .. مثل ذلك الشاب الذى اقترض منك مبلغا كبيرا من المال .. اتذكره !

ــ بافيل جراشوت ..

ــ نعم .. ما اعجب هذه الاسماء التى يطلقها هؤلاء الناس على ابنائهم

ولكن ايليا كان ينصت اليها وهو يعود بذاكرته الى الوراء .. الى تلك الخيوط القوية الخفية التى تربطه دائما الى بيت بتروشكا .... وكان يعرف أن شبح هذا البيت سوف يمنعه من الشعور بالبهجة مدى الحياة

***

واخيرا تحقق امل ايليا فى المتجر ..

وراح يقف فيه من الصباح الى المساء ، يشبع عينيه بمنظره ، ويملأ قلبه بالنشوة . وكانت الارفف نظيفة منسقة تنوء بالعلب والصناديق الورقية ، وكانت الواجهة تعرض فى تناسق رائع الوانا من المساحيق وأدوات التجميل والعطور والصابون والشرائط وغيرها . وكان كل شيء يبدو متألقا مرتبا يلفت الانظار .. حتى هو كان يقف فى متجره وسيما وقورا يتعامل باحترام مع عملاء محترمين مهذبين . وعلى الجملة اخذت الحياة تجرى به فى بساطة ويسر وبلا متاعب أو تعقيدات .. وتراجع الماضى وراء غلالات من الضباب ، ولم يعد يفكر الا فى متجره وعملائه وسلعه

واستعان لمساعدته بغلام هادىء الاخلاق ، نظيف الملابس ، يدعى

بجافريك . وقد قال له يوم جاء به الى المتجر لاول مرة :
ـ انك تتعامل مع اناس نظفاء .. ولهذا يجب ان تهتم بالنظافة يا جافريك ..

وكان الغلام في الثانية عشرة من عمره ، ومادى العينين ، معبس الوجه . وكان قد فرغ من دراسته الاولية وبدأ ينظر الى نفسه كرجل يسير في أول طريق الاعتماد على النفس . وقد أحبه ايليا من اليوم الاول . وقال له ذات يوم ناصحا :
ـ عندما لا يكون هناك ما تعمله يا جافريك ، اشغل نفسك بقراءة كتاب . لسوف تدهش حين تجد الوقت يمر بسرعة أثناء القراءة

وهدأت نفسية ايليا ، وانحسر الحقد منها ، واصبح وادعا تقول ابتسامته للناس :
« اترون ؟ انني رجل سعيد الحظ . وعليكم بالصبر .. فسوف يواتيكم الحظ يوما »

ولكن شبح الجريمة كان يطوف بايليا بين الحين والاخر ، فيثقل عليه ويحجب منه الشعور بالبهجة ، ويحاول الشاب أن يتخلص منه بسرعة ، فيتحدث مع جافريك :
ـ بماذا يشتغل والدك يا جافريك ؟..
ـ موزع بريد ..
ـ هل اسرتكم كبيرة ؟..
ـ نعم .. عددنا كبير .. وبعضنا صغير السن .. وبعضنا كبيره .
ـ كم عدد الصغار ؟..
ـ خمسة .. وثلاثة كبار .. صالحون للعمل .. انا أحدهم ..
وفازيلي عامل برق في سيبيريا . واختي سونيا تعطى دروسا خاصة . انها بارعة ، وتكسب نحو اثنى عشر روبلا في الشهر .. واخيرا أخي ميشا الذي يدرس الالعاب الرياضية بالمعهد .
ـ اذن فأنتم اربعة كبار !
ـ لا . . ان ميشا لا يزال طالبا بالمعهد . ان الكبار فقط هم العاملون
ـ وهل انتم اسرة فقيرة ؟..
ـ طبعا ولكنني سوف أصبح غنيا مشهورا حين أكبر .. سوف التحق بالجيش ، وساحارب الاعداء ، واتقدم الصفوف ، واظفر بالراية

كما فعل عمى الضابط كيركو .. لقد نال وساما وخمسة روبلات على بطولته ..

وكان ايليا يبتسم وهو ينظر الى الغلام المتحمس فى تصوير أحلامه ..



وفى المساء ، عندما يغلق المتجر كان ايليا يدخل الغرفة الخلفية الملحقة به . وهناك يشترك مع جافريك فى تناول الشاى والعشاء ، ثم يعود الغلام الى المتجر لينام . أما ايليا فيظل بجوار موقد الشاى ساهرا ساعة أو ساعتين

ولم يكن بالغرفة الا الاثاث الضرورى لشاب أعزب . سرير مفرد ، ومتكأ ومقعدان .وصوان ملابس ومائدة وموقد للطهو وآخر للشاى . وكان لها نافذة مربعة تكشف عن ارجل المارين بجوارها وعن اسقف المنازل فى الجهة الاخرى من الشارع وفى بعض الاحيان كان بافيل يمر عليه اثناء عودته من العمل الى البيت ، ويجلس معه لحظات . وكان وجهه يبدو دائما ملطخا بالهباب ، وقميصه مكمشا قذرا ، وكان دائما يحضر وهو يحمل انابيب رصاص او قطعة نحاس او شيئا ما من الاشياء التى يتكون منها محل السباكة الذى يعمل به . وكان دائما يبدو متعجلا .. فاذا طلب منه ايليا ان يطيل زيارته ، قال :

ـ لا .. لا .. ان فى مسكنى طائرا ناريا .. اخشى ان يحطم القيود ويطير ؟ آه .. فيرا .. فيرا .. ترى اية افكار تخامرها وهى جالسة بمفردها تنتظر عودتى طيلة اليوم . لا شك ان الملل يكاد يقتلها .. آه لو كان لنا طفل !

ثم يتنهد بعمق ..

وفى مرة اخرى قال :

ـ لقد سكبت كل مائى فى الحديقة .. فلا شك اننى افسدت تربتها !.

وقال فى مناسبة ثانية :

ـ اننى اكتب باصبعى على صفحة السماء اللعنة على كل شىء .. من نحن حتى نجلس بملابسنا القذرة على مائدة الحياة الشهية ؟ لقد فقدت عقلى هذه المرة تماما يا ايليا . لم تعد لى ذرة من الهام . ان كل

تفكيري منحصر فيها ، فكيف افكر في شيء آخر . يا للمسكينة .. انها تعسة في حياتها ..
ـ وانت ؟! ..

ـ وانا ايضا .. ولكنني ألفت هذا اللون من الحياة ، اما هي فقد اعتادت على البهجة والسهر والشرب وهي دائما تحلم بالمال .. دائما تقول ان المال يمكن ان يغير كل شيء . وكثيرا ما تقول انها آسفة لانها لم تستطع ان تستنزف اموال تاجر عجوز .. أي تاجر .. ومما يزيد تعاستها امعان تفكيرها في امري وفي بؤس حياتي ..

ثم يسرع الى البيت وقد ازداد شعورا بالقلق

***

وكان ايليا يذهب بين الحين والاخر الى بيت بتروشكا حيث يلتقي بالاسكافي برفشكا واقفا امام الحانة ، مشعث الشعر ، احمر العينين ، ممزق الثياب ، والاكرديون تحت ذراعه . وكان يسرد عليه في كل مرة اخبار ما يحدث في بيت بتروشكا ، فيقول :

ـ ان زوجة بتروشكا الجديدة هي اداة العدالة الالهية . انها امرأة دميمة قوية الجسم ، سليطة اللسان ، تذيقه الوانا من العذاب ، اما ياكوف فهو يبدو دائما كالصرصار الذي يبحث عن جحر يختفي فيه . انه لا يكف عن الشراب ، مثلي ، ليلا او نهارا . والسعال يكاد يقضي عليه .. انه مصاب بالسل .. وأبوه وزوجة أبيه تأكلانه حيا .. لا يكفان عن ايذائه بسبب وبغير سبب . انه كالنبات البري الضعيف الذي يدوسه كل انسان دون ان يحفل احد بامره .. ولا يزال عمك ترتني في كييف . ولست أدري ماذا يفعل هناك ؟ وقد اصبحت ماتيتزا مقعدة تماما وهي تجلس في عربة يد يسوقها شحاذ أعمى ويتسولان معا .. ان منظرهما عجيب ، ولكنهما يجدان دائما ما يأكلانه . وهي لا تزال طيبة القلب كالمعتاد

ـ وكيف حال ماشا ؟..

وتختفي الابتسامة من وجه الاسكافي عندما ذكر ابنته ماشا . وتحل الكآبة محلها وهو يقول :

ـ لا اعرف عنها شيئا . ان زوجها العجوز يهددني بتحطيم عظامي اذا مررت امام البيت . ايليا .. أرجوك ان تعطيني ثمن كأس من الخمر .. لقد جف حلقي من فرط الحديث معك

— انك رجل ضائع يا برفشكا ..

— نعم .. ضائع الى الابد .. لقد انتهت حياتي . ولكن كثيرا من الناس سوف يذكروننى بالخير بعد مماتى لانى طالما اضحكتهم واسعدتهم بعزفي على الاكورديون . ولكن لا تنسى اننا سنرقد معا فى مكان واحد عند النهاية ، وسوف يعذبنا الشيطان جميعا لاننا اطمناه . ومن حق الرجل المرح مثلى ان ينال حظه من الحياة كأى انسان آخر ..

وكان ايليا يشعر بالرثاء لبرفشكا ، ولبافيل كلما تحدث اليه . وكان لا يكف عن اعطاء بافيل مبلغا بسيطا من المال بين الحين والاخر ، ويقول له وهو يهز كتفيه :

— انني لا ادرى كيف اساعدك بطريقة اخرى . اعتقد ان خلاصك من هذا البؤس يتركز فى تخلصك من فيرا ..

ولكن بافيل كان يقول له مؤكدا :

— لا استطيع . ان فى مقدورك ان تتخلص من شيء لا تريده ، ولكننى اريدها .. فى حاجة اليها .. انني اعرف ان هناك من يريد انتزاعها منى . ولكنهم لن يستطيعوا .. ولعلى لا أحبها بقلبى ، وانما بمشاعرى المترعة بالحقد والغضب . انها كل سعادتي فى الحياة . فاذا تنازلت عنها ، فماذا يبقى لى . لا .. لن اتركها لغيرى . لسوف اقتلها أولا ...

ويربد وجه بافيل بالثورة ، ولكن ايليا يهدىء ثائرته ويقول :

— هل لاحظت ان هناك من يسعى وراءها ؟

— لا ..

— اذن لماذا تقول انهم يريدون انتزاعها منك ؟

— انهم يحاولون .. هناك قوة تريد أن تنتزعها مني . لقد تحطمت حياة أبي بسبب امرأة .. ويبدو أن هذا هو مصيرى ايضا .

ويقول ايليا وهو يهز كتفيه ويشعر انه ادى واجبه :

— اذن فليس هناك ما يمكن ان افعله لك ..

ويقطب بافيل جبينه ثم يقول بصوت يقطر بالمرارة :

— أعرف انك لا تستطيع مساعدتى . لقد صنعت لنفسك هنا ركنا آمنا بعيدا عن بؤس الحياة . ولكن اسمع : ان هناك من يسهر

الليل يفكر فى طردك من هذا الركن الآمن . وسوف يأتى اليوم الذى تطرد منه ، اما برضاك أو رغما عنك ..

فقال ايليا ساخرا :

ــ واذا رفضت ؟ ..

ولكن بافيل أجاب قائلا فى حدة وهو يحملق فى وجه صاحبه :

ــ لن يكون لك الخيار .. انك لن تستطيع أن تقضى حياتك كلها جالسا هكذا فى هذا الركن المظلم .. انك اما أن تلجأ الى الخمر أو تفلس ..

ــ ولكن لماذا ؟ ..

لأن هذه الحياة لا تتفق مع طبيعتك .. انك شاب نشط طموح .. وان كثيرا من الناس يعيشون طول حياتهم أصحاء ، ثم اذا هم يسقطون فجأة ..

ــ ماذا تعنى بالسقوط .. ؟!

ــ أعنى الموت ..

وتنفس ايليا بعمق وقال ضاحكا :

ــ كلام فارغ ..

ولكن كلمات بافيل هذه كانت ترتد اليه وهو جالس ليلا بجوار موقد الشاى فى غرفة النوم ، وعندئذ يفكر فى علاقته التجارية بتانيانا .. حقا انه يشعر بالعرفان لجميلها لانها ساعدته على تحقيق أسطع أمل فى حياته ، ولكنه يلاحظ فى الاسابيع الاخيرة انها تعامله كأجير عندها وليس كشريك ساهم فى المتجر بأكثر من النصف

وشعر بالغضب الشديد عندما انتهى به الفكر الى هذه الحقيقة ، وقال لنفسه :

ــ اذن فهى تضمنى الى صدرها بقوة حتى تستطيع أن تمد يدها الى جيبى وتسرقنى ؟

وقرر أن يستغل كل درهم معه ليشترى حصتها فى المتجر ويستقل به لنفسه . ولم يتردد فى اتخاذ هذا القرار ، لانه شعر أخيرا أن علاقته العاطفية بها قد بردت وفقدت بهجتها . وقد قال لها ذات يوم حين اسرفت فى حديثها الفاجر عن غيرها من النساء :

ــ انك امرأة لا تعرفين معنى الشرف يا تانيانا .. !

ولكنها كانت تضحك وتمعن فى ذلك الحديث .. وعندئذ يقول لها:
ـ اذا صح ما تقولينه ، فان هذه الحياة التى تحيونها لا تساوى قشه ..
ـ ولماذا لا ؟! انها تسلية ومرح ؟ ..
ـ من التســـــلية والمرح انتهاك اعراض الناس بالحـديث طيلة النهار ، وخيانة الزوج طيلة الليل ؟
فضحكت وقالت :
ـ يالك من شاب بسيط ساذج ..
وفى ذات مرة سألها قائلا :
ـ هل تؤمنين بالله ياتاتيانا ؟!
ـ ياله من سؤال ؟ طبعا اومن بالله .. لماذا تسأل ؟
ـ ولكن اذا كنت تؤمنين به ، فلماذا ..
ـ اننى اومن به لانه رحيم .. يغفر الذنوب لعباده ..
وقال ايليا مستنكرا :
ـ الهذا فقط انت فى حاجة الى الله .. ليغفر لك آثامك ؟
وبدأ منذ ذلك الحين يتجنبها ، وينظر اليها على انها امرأة غريبة عنه ، ويسعى ـ سرا ـ لشراء حصتها فى المتجر ..
وفى خلال هذه الفترة تعرف بفتاة أخرى ..



الفصل الثانى عشر

عودة ماشـــا

كانت الفتاة الاخرى التى تعرف بها هى سونيا أخت غلام المتجر جافريك . ذلك أنها كانت تأتى بين الحـــين والآخـــر لترى أخاها وتطمئن عليه وتحضر له بعض الفطائر والحلوى وتنقل له أخبـــار الاسرة ، وتحمل له ملابس نظيفة بدلا من التى اتســـخت . وكانت طويلة القامة ممشوقة القوام متوسطة الجمـــال ، ذلك أن جبينهـــا المرتفع كان كثير الخطوط ، وانفها اكبر مما ينبغى قليلا ، وشفتاهـــا رفيعتان جدا .. ومزمومتان دائما ! أما عيناها فـــكانتا سوداوين واسعتين لهما نظرة حازمة ترغمك على احترامهـــا . وكانت كلمـــا أقبلت على المتجر ، أسرع ايليا وقدم لها مقعدا ، فتومىء له برأســـها وتشكره بكلمة واحدة . ويشرع هو فى اختلاس النظـــر اليها مؤمنا فى قرارة نفسه انها تختلف تماما عن كل امرأة عرفها من قبـــل . وكانت ملابسـها — فى جملتها — تنم عن رقة الحـــال مع الاحتفـــاظ بالكرامة والحرص على الاباء . وكان ايليا يعجب من فرط كبـــرياء هذه الفتاة رغم رقة حالتها المالية

وكانت بعد أن تجلس مع أخيها ، تنهض قائلة :

— وداعا الآن .. كن مطيعا دائما ولا تعرض نفسك للمؤاخذة

ثم تومىء برأسها لايليا وتنصرف فى هيئة الجندى الذى يتقـــدم الى المعركة

وقال ايليا للغلام جافريك ذات يوم :

— ان لك اختا جادة أكثر من اللازم .

فضحك الغلام وقال :

ـ لا تنخدع بمظهرها .. انها تتظاهر بهذا كله على سبيل التسلية

***

وأخذت الايام تمر .. وظل ايليا رابضا في متجره ، يفتل شاربه، ويبيع السلع الرقيقة لعملائه ، ولكنه بدأ يشعر بالملل .. وكثيرا ما فكر في اغلاق المتجر يوما كاملا والتجول خارج المدينة في المزارع ، والهواء الطلق ، وتحت سماء صافية الاديم . ولكن هذه الامنية لم يكن قادرا على تحقيقها .. لا في النهار ، ولا في الليل ، لان جاقريك كان يخشى البقاء بمفرده في المتجر .. وكان ايليا بدورم يخشى أن يتركه وحيدا داخل المتجر خشية أن يشعل النار فيه خطأ ، أو أن يفطن اللصوص الى الامر فيسرقوه

أما علاقته بتاتيانا فقد اخذت تنفصم تدريجيا .. .. ولم تعترض هي على هذا الوضع ، بل تقبلته ، كالمعتاد ، بالضحك . واكتفت بأن تراجع حسابات المتجر كل يومين أو ثلاثة مراجعة دقيقة فاحصة . وكان ايليا يشعر احيانا بالنفور ، منها وهي جالسة تراجع الحسابات بوجه يشبه وجه الصقر .. ويعجب لنفسه كيف احبها يوما وكيف طاوعته نفسه على الاستغراق معها في تلك العلاقة . ولكنها لا تلبث أن تأتي اليه في يوم آخر ، مضيئة .. جذابة .. حلوة .. عابثة ، فتظل تغريه وتعبث بعواطفه حتى يجد نفسه في النهاية بين ذراعيها بالغرفة الخلفية .. !

وفي الوقت نفسه كان زوجها كيريك يأتي لزيارته بين الحين والآخر ، ويحدثه عن عمله الجديد كموزع لسلع شركة كبيرة في الارياف ، وعن علاقاته الغرامية بكل قرية أو مدينة ينزل فيها ، وعن أرباحه الشهرية التي تجاوزت الستين روبلا .. وفي النهاية كان كيريك يضرب ايليا على كتفه ويقول :

ـ انك شاب ساذج يا صديقي .. غير مجرب .. تعلم مني .. لا تترك أية فرصة تفوتك للاستمتاع بالمرأة .. ان المرأة هي بهجة الحياة ..

ويحني ايليا رأسه ثم يقول :

ـ سوف أحاول أن أتعلم منك يا عزيزي كيريك ..

ـ أليست لك عشيقة .. واحدة ؟

ـ لي .. زوجة محترمة .. لرجل محترم ..

وضحك كيريك وقال وهو يضربه على كتفه مرة أخرى :
ــ يا لك من ماكر ! اذن يجب أن تعرفني بها يوما ..
ثم ازداد ضحكا وقال :
ــ وبزوجها أيضا ..
وقال ايليا وهو يحاول أن يكتم الضحك :
ــ طبعا .. طبعا ..
وفي ذات ليلة ، وبينما كان يهم باغلاق المتجر ، جاءه بافيل وقال بهدوء ودون أن يحييه :
ــ لقد هربت فيرا ..
وتهالك جالسا على مقعد .. وراح يصفر بشفتيه دون أن يعبر وجهه عن شيء ، وقال له ايليا :
ــ بمفردها أو مع أحد ؟
ــ لا أدري .. لقد هربت منذ ثلاثة أيام ..
وحاول ايليا أن يعرف من امارات وجهه وقع فـــرار زوجته على نفسه ، ولما عجز ، قال :
ــ وماذا تنوي أن تفعل ؟
فتوقف بافيل عن الصفير وقال دون أن تختلج عضلة واحدة في وجهه :
ــ سـأقتلها ..
ــ لا زلت تفكر بالعقلية القديمة ؟
ــ لقد حطمت نفسي من اجلها ... هاهي ذي السكين ..
ثم أخرج من صديريته سكينا صغيرا ، وأردف قائلا :
ــ لسوف أمسك بها من عنقها و ..
واختطف ايليا السكين وألقى بها وراءه وقال :
ــ أتصوب مدفعا الى ذبابة ؟ ..
فوثب بافيل مهتاجا .. ولكنه عاد الى مقعده وقال :
ــ لا داعي للسكين .. ان يدى تكفيان ..
ــ أحقـا ؟ ..
ــ واذا خذلتني يداى .. فسوف أقتلها بأسناني ..
ــ يا لك من حيوان متوحش ؟

فقال بافيل بعدئذ :

ـ حذار يا ايليا .. لا تسخر مني .. لقد نلت كفايتي من سخرية الحياة ..

ـ ولكن فكر مليا فيما تنوى أن تفعله ..

ـ لقد فكرت .. ويحسن أن أنصرف . لم يعد هناك ما أقوله لك .. انك لم تعد صديقا لى .. لقد اصبحت من ذوى البطون الممتلئة ..

ثم اندفع خارجا من المتجر ..

وهتف ايليا عليه لينتظر .. ولكن بافيل لم يحفل به . وقال الغلام جافريك الذى كان جالسا فى ركن من المتجر :

ـ يبدو أنه مدهش الطباع ..

وضحك ايليا قائلا :

ـ ان له العذر ..

وقال الغلام وهو يقترب من سيده وقد عقد ذراعيه وراء ظهره :

ـ من التى يريد أن يقتلها ؟

ـ زوجته ..

ـ وهل سيقتلها فعلا ؟

ـ كفى أسئلة يا جافريك ..

وتراجع الغلام الى ركنه وهو يتمتم :

ـ لماذا يتزوج الناس بحق الشيطان ؟؟

وبعد أن صمت قليلا، أردف قائلا حين رأى المصابيح تضاء فى الشوارع :

ـ لقد حان وقت اغلاق المتجر .

ـ اذن قم بهذا العمل ..

واغلق الغلام الباب ، وأغلق المتجر فى الظلام ، وأدار المفتاح فى ثقب القفل مما جعل ايليا يقول لنفسه : وكأننا فى سجن !

وأخذ يستعيد كلمات بافيل عن « كونه من أصحاب البطون المنتفخة » ويشعر ـ وهو جالس بجوار موقد الشاى ـ بشىء من العداء لبافيل . الا أنه كان واثقا بأن بافيل لن يستطيع الاساءة الى فيرا ..

وقال لنفسه : ليتنى لم أدافع عنها أبدا .. ليذهبا معا الى الجحيم .. انهما تمسان وكل انسان فى هذه الدنيا تمس ..

وقال جافريك وهو يحسو قدح الشاى بصوت مسموع :

ــ هل تعتقد يا سيدى أنه فرغ الآن من قتلها ؟

فنظر ايليا اليه فى شرود ذهن وقال :

ــ اشرب شايك واذهب الى فراشك .

وفى تلك اللحظة ظهر شخص ما وراء النافذة من الخارج وقال :

ــ هل يقيم ايليا لنييف هنا ؟ ..

وقبل أن يقول ايليا شيئا ، قال جافريك وهو يقفز ليفتح الباب :

ــ نعم ..

ووقفت بالباب المفتوح امرأة صغيرة الجسم معصوبة الرأس بمنديل وكانت تمسك مقبض الباب بيد ، وبالأخرى أطراف منديلهـــــا .

وكانت تبدو فى سمت الشخص الذى يستعد للهـــرب فى أية لحظة .. وقال أيليا ببرود دون أن يتعرف عليها :

ــ أدخلى ..

وجفلت ورفعت رأسها عند سماع الصوت ، ثم ابتسمت . وعندئذ صاح ايليا وهو يقفز من مكانه :

ــ ماشا !! ..

وأرسلت ضحكة خافتة ، وتقدمت الى وسط الغرفة وقالت :

ــ الم تعرفنى !! ..

ــ يا للسماء .. كيف تتوقعين ان أعرفك وأنت تبدين ..

ثم تناول ذراعها بترحيب مبالغ فيه ، ومضى بهــــا الى المائدة وهو يلاحظ مدى نحافتها وضعفها حتى تكاد ساقاها تعجزان عن حملها . وقال وهو يجلس على مقعد :

ــ الى هذا الحد تغير شكلك ..

ــ ان هذا كله من صنع يديه .. !!

وبدت وهى مسترخية أمام ضوء المصباح كأنها شبح ، أو هيكل عظمى مكســـو بطبقة رقيقة من الجـلد البشرى .. وكان صـــدرها المسطح يكاد يكشف عن ضلوعها ، وبدا وجهها غائر الوجنتين ، ممتقع اللون كوجوه الموتى ، ومن ثم قال ايليا لها وهو يشعر بأشد العطف عليها :

ـ هل كنت مريضة ؟ ...

ـ لا .. ان صحتى لا بأس بها .. ولكن حالتى هذه راجعة الى قسوته فى معاملتى

وقال ايليا لجافريك حين رآه واقفا ينظر الى ماشا فى خوف :

ـ اذهب الى فراشك يا جافريك ..

ومضي الغلام الى المتجر ، وراح يتحرك فيه قليلا ، ثم اطل برأسه من باب الغرفة

وفيما كان ايليا يقدم قدح الشاى الى ماشا ، قالت بصـــوت باك :

ـ انه يعذبنى عذاب الموت ..

وانفجرت باكية .. وقال لها ايليا :

ـ أشربى الشاى .. لا داعى للبكاء .. لسوف يتم كل شيء على خير ...

وهزت رأسها وقالت :

ـ لسوف يعثر على ويستردنى بالقوة ..

ـ هل هربت منه ! ..

ـ نعم .. للمرة الرابعة .. كلما عجزت عن الاحتمال هربت منه .

وفى المرة السابقة اردت أن اغرق نفسي فى البئر . ولكنـــه لحق بى وضربنى .. لشد ما اتعذب على يديه !

ثم امتلأت عيناها بالفزع واردفت قائلة :

ـ انه يلوى ساقى ويلسع صدرى بالنار ..

فصاح ايليا بغضب :

ـ لماذا تتحملين كل هذا ؟ لماذا لا تبلغين مركز الشرطة عنه ، ان رجال الشرطة يضعون امثاله فى السجن ..

ـ ولكنهم لا يستطيعون أن يمسوه بسوء .. لانه قاض ..

ـ كيرنوف ؟ لا .. انه لم يكن قاضيا فى يوم ما ..

ـ بل كان .. لقد جلس على منصة القضاء منـــذ مدة غير بعيدة أسبوعين كاملين كان يصدر خلالها الاحكام على مختلف الناس ، ثم يعود الى البيت جائما شرسا ويكوى صدرى بالنار .. انظر !

ثم كشفت عن نهديها المتهدلين كقطعتين من الجلد ، وكانت عليهما



ووقفت بالباب المفتوح امرأة صغيرة الجسم ، وكانت تمسك مقبض الباب بيد ، وبالاخرى ازاف متعيلها ...

آثار الكي وبعض الجروح التي لم تلتئم بعد
وقال ايليا بصوت أجوف وهو يشيح بوجهه من فرط التأثر :
ـ اغلقي الثوب . أرجوك ..
وعادت هي تقول بصوتها ينم عن الراحة لانها تحب من تشكواليه:
ـ وكل جسمي بهذا الشكل .. انه يعذبني بالكي .. وبالقرص .. وينزع الشعر بقوة .. وبكل وسيلة ممكنة
ـ ولكن لماذا ؟ ! ..
ـ لانه يشعر انني لا احبه ..
ـ لعلك لم تكوني عذراء عندما ذهبت اليه ! ..
ـ كيف تقول هذا وانت تعرف عني كل شيء . لقد عشته معك ومع ياكوف دون أن يمسني بشر .. أما الان .. فاني اكره هذا .. أكره هذه العلاقة الى حد الشعور بالغثيان .
فقال أيليا برفق :
ـ لن نتحدث عنها بعد الان يا ماشا ..
وخيم السكون على المكان .. وفجاة سمع ايليا نهنهة انســان يبكي في صمت ، فنهض الى الباب المؤدى الى المتجر حيث سمع جافريك يبكي بحرقة وهو يحاول كتم شهقاته ، فقال له :
ـ كفى بكاء .. يا جافريك ..
وقالت ماشا :
ـ أهذا غلامك ؟ ماذا به ؟ ..
ـ انه يبكي ..
ـ لماذا ؟ أهو خائف ؟
ـ لا .. بل حزين ..
ـ من اجل من ؟ ..
ـ من اجلك ..
ـ يا له من طفل ! ...
وقال ايليا وهو يراها تشرب الشاي بهدوء :
ـ وماذا تنوين أن تفعلي ؟! ..
فتنهدت قائلة :
ـ لا أدرى .. ماذا ينبغي أن افعل ؟

ـ تقدمی بشکوی ضده ..

ـ لقد كان يعامل زوجته الاولى هكذا . كان يشدها الى السرير بشعرها ويكويها وفي ذات ليلة نهضت من النوم في فزع وألم ووجدته يمسك بعود ثقاب مشتعل ويلسع به بطنى

ووثب ايليا في غضب وراح يهتف قائلا ان عليها أن تذهب الى مركز الشرطة في اليوم التالي وتقدم شكواها للمسئولين طالبة القبض عليه بعد ان تكشف لهم عن الجراح في جسمها . ونظرت هي اليه في خوف ثم قالت :

ـ لا تصرخ هكذا يا ايليا .. انني خائفة منك . وقد يسمعك أحــد ..

فهدأ فجاة وقال :

ـ حسنا .. سوف أخرج الان .. نامى في سريرى يا ماشا . وسوف انام في المتجر ..

فقالت ماشا :

ـ شكرا على هذا الحديث .. انني متعبة واريد أن انام ..

وساعدها ايليا على الرقاد في سريره ، ولفها بالبطانية في احكام . ولما هم بمغادرة الغرفة ، قالت له وهي تبتسم في شحوب :

ـ أرجوك أن تنام هنا .. انني أخاف من النوم بمفردي ، يخيل الى أن هناك أشباحا تطاردني ولم يسع ايليا الا ان يجلس على مقعد بجوار النافذة .. واستغرق في تفكير عميق .. وتذكر رجاء ياكوف وماتيتزا له برعاية ماشا ومحاولو انقاذها .. واحس بالعار لانه استغرق في شئونه الخاصة ، وفي مطامحه ، تاركا هذه الجارة الضعيفة تعاني بمفردها قسوة الحياة . وقرر أن يقف بجانبها حتى يقتص لها من زوجها القاسى

وغلبه النوم على امره .. واكتنفته الاحلام المزعجة من كل جانب .. ورأى نفسه يسير في طريق مظلم وهو يسمع استغاثة ماشا به .. وكلما سار في الطريق ، ابتعد صوت الاستغاثة عنه حتى فقد اثره وفجاة سمع من يقول له وهو يهزه بعنف :

ـ ايليا .. ايليا .. استيقظ ..



الفصل الثالث عشر

الضمير المعذب

فتح ايليا عينيه ليرى بافيل جراشوف جالسا على مقعد بجواره يركله بقدميه ليوقظه . وطرف ايليا باجفانه امام فيض الضوء المنساب من النافذة ، بينما قال بافيل بصوت متحشرج ووجه شاحب وشعر مشعث :

ــ اسمع يا ايليا ..

ووثب ايليا واقفا حين راى منظر بافيل الرهيب وقال :

ــ ماذا حدث يا بافيل .. هل . . . !

فهز بافيل راسه وقال :

ــ لا .. وانما قبضوا عليها ..

ــ عليها ؟ على من ؟ واين هى ؟

ــ فى السجن ..

ــ لماذا ؟..

واستيقظت ماشا بدورها ، ونظرت فى خشوع الى بافيل الذى اجاب على سؤال ايليا بقوله :

ــ يقولون انها سرقت حافظة نقود ... من تاجر غنى .

واردف قائلا :

ــ وضربت احد رجال الشرطة على وجهه ..

وارسل ايليا ضحكة جافة وقال :

ــ طبعا .. مادمت ستدخل السجن فادخله وانت جدير به !

ولما ادركت ماشا ان الحديث لا يدور حولها ، ابتسمت وقالت :

ــ كم اتمنى لو انهم وضعونى فى السجن !

ونظر بافيل اليها ، ثم الى ايليا الذى قال له :

ــ الا تتذكرها .. انها ماشا ابنة برنشكا الاسكافى ... هل نسيتها ؟

فغمغم بافيل بكلمة عابرة ثم استدار الى ايليا وقال بصوت كله التعاسة :

ــ كيف يكون الحال يا ايليا لو أن فيرا ارتكبت جريمة السرقة من أجلى ؟

وقال ايليا فى صوت ينم عن الضيق والحزن :

ــ كنت واثقا من أن علاقتكما سوف تنتهى بهذه المأساة ..

ــ لقد أبت أن تسمح لى ..

ــ هل تعنى أن ماحدث لها راجع الى رفضها الاستماع لك ؟ ماذا أردت أن تقول لها ؟

ــ قلت لها اننى احبها ..

ــ وبماذا تستفيد من حبك لها بحق الشيطان ؟

ثم اردف قائلا وكأنما ينفس عن ضيقه وغضبه :

ــ ماذنبها هى ؟ اليس من حقها أن تأمل فى حياة نظيفة مستقرة ، انها لا تنقص شيئا عن غيرها .. وكل ما تناله منك هى عبارة « انا أحبك » . فهل تعتقد أن كلمة الحب ستغنيها عن كل شىء اخر فى الحياة ؟

فقال بافيل فى ذلة :

ــ وماذا كان بوسعى أن افعل ؟..

وهذا السؤال من غضب ايليا وجعله يصمت ويفكر ..

وأطل الغلام جافريك برأسه وقال :

ــ هل أفتح باب المحل ؟..

فصاح ايليا قائلا :

ــ اللعنة عليك وعلى المحل .. هل استطيع الان أن أتعامل مع أحد .. ؟

فقال بافيل وهو يطرق برأسه :

ــ انى أعطلك ..

ــ لا لست تمطلني .. ولا ماشا تمطلني .. ولكن هناك شـــيئا اخر خفيا يعطلنا جميعا انته وانا وماشا .. شيئا يفسد حياتنا جميعا لعلي اثرثر بلغو الكلام . ولكنني واثق تماما بانه لا يوجد امام أحدنا اية بارقة من أمل في ان نحيا حياة نظيفة مســـــــتقرة محترمة تليق بالادميين . لقد سئمت من رؤية الاقذار حولي في كل مـــكان .. الجرائم والقسوة والجشع والتكالب .. ومع ذلك فانا نفسي ..

وامسك عن اتمام الحديث وقد شحب وجهه . وقال له يافيل :

ــ انك دائما تتحدث عن نفسك !! كل انسان لا يكف الحديث عن آلامه ومتاعبه ويتأوه ويتوجع بصوته . انني لا اتحدث عن نفسي ، وانما عن غيري لان الجميع يأتون الي ويضعون متاعبهم بين يدي .

ونهض يافيل متثاقلا وهو يقول :

ــ انني منصرف ..

ــ ارجوك الا تعتبر حديثي اهانة لك .. انني لست اقصدك .

ــ لا عليك يا ايليا .. انني اشعر الان كأني مضروب على راسي بهراوة ضخمة .. مسكينة فيرا .. ماذا يمكن ان تفعل من اجلها ..

فقال ايليا بصوت حاسم :

ــ لا شيء .. يمكنك أن تعتبرها مفقودة الى الابد .. لا مفر من ان يصدر الحكم بادانتها .. واذا عاشت في السجن أكثر من شـــهر فقد انتهت الى الابد . . .

وعاد يافيل الى الجلوس وهو يقول :

ــ وماذا لو قلت انها سرقت الحافظة لي .. اي انني المحـــرض لها على السرقة .

ــ ومن انت ؟ أمير ؟ انك لو فعلت هذا فسوف تســجن معها . حسنا .. عليك يا ماشا ان ترتبي الغرفة ، وسوف اخرج انا ويافيل للعمل في المتجر بعد ان نتظف أنفسنا .. ويحســــــن أن تعدى لنا بعض الشاى أيضا

ورفعت ماشا راسها وقالت في خوف :

ــ هل يجب أن اعود الى البيت ؟ ..

ــ البيت ؟ ان البيت هو المكان الذى يشـــعر فيه المرء بالامن والراحة ..

وقال بافيل بعد ان خرجا الى المتجر :
ـ ماذا تريد منها .. انها نصف ميتة ؟
ولما سرد ايليا عليه ماساتها ، استشاط بافيل غضبا وثورة وقال :
ـ ذلك الشيطان العجوز ؟ لو رأيته لخنقته بيدى ..
وابتسم ايليا .. ثم قال وهو يستدير بنظراته فى أرجاء المحل :
ـ قلت لي يا بافيل يوما انني لن أجد السعادة فى عملي هـذا . صدقت ، لقد بدأت اشعر بتفاهة هذا العمل .. اى جـدوى من وقوفي هنا طول النهار لأبيع وأشترى .. لقد فقدت حريتي .. لم يعد فى مقدورى أن اخرج واتجول وارى الدنيا واجلس فى ظل شجرة على ضفة جدول .. انني سجين هنا .. ليلا ونهارا
فقال بافيل :
ـ كان يمكن لفيرا أن تكون مساعدة بارعة لك ..
وأرسل ايليا اليه نظرة سريعة ولم يقل شيئا .
وقالت ماشا :
ـ تعالوا واشربوا الشاى .
وجلس الثلاثة حول ابريق الشاى .. وكانت الشمس فى الخارج ساطعة ، والحياة تنبض فى الطريق .. وقال ايليا :
ـ اننا نجلس وكاننا عدنا من تشييع جنازة
وقال بافيل :
ـ انها جنازة فيرا .. ترى هل انا المذنب فى حقها ؟
وقال ايليا :
ـ ربما ..
ـ يالك من انسان متحجر القلب ..
ـ وهل وجدت فى الحياة ما يلين قلبي ؟ هل احسست يوما بيد حانية تمسح على راسي . حقا لقد وجدت الحب الصادق فى حياتى مرة واحدة .. ولكنه حب امرأة بغى ..!
ثم وثب مهتاجا ثائرا يريد ان يدمر اى شيء . وولولت ماشـــــا قائلة :
ـ دعونى أنصرف الى البيت .. انني خائفة ..
وقال ايليا :

ـ لماذا تبكين ؟ ان ثورتنا ليست عليك .. ثم الى اين تذهبين .. انا الذى سأذهب .. سوف يبقى بافليل هنا .. واذا جاءت ثانيا يا جافريك فقل لها ـ آه ... من القادم ؟

وكان ثمة شخص ما يطرق على الباب الخلفي المؤدي الى الفناء وقال ايليا لجافريك حين رآه ينظر اليه متسائلا :

ـ افتح الباب ياجافريك ..

ووقفت سونيا ـ أخت جافريك ـ بالباب المفتوح ، وراحت تتامل المجتمعين بنظرات مدهوشة أولا ، ثم مليئة بالاحتقـــار ثانيا .. وتجاهلت انحناءة ايليا لها وقالت لاخيها جافريك بحدة :

ـ تعال هنا يا جافريك .. أريد ان اقول لك شيئا ..

واحس ايليا بالدماء تثور في رأسه ازاء هذه الاهانة ، ولم يسعه الا ان ان يقول بصوت مترفع :

ـ عندما ينحني أحد اليك بالتحية يجب ان تردي عليها ..

فرفعت رأسها عاليا ، والقت نظرة سريعة الى وجه ايليا وزمت شفتيها . وكذلك نظر جافريك الى سيده غاضبا . واستطرد ايليـــا يقول :

ـ انك لست أمام قتلة أو لصوص أو ســكارى .. وانما امام اناس محترمين . وانا امامك دائما باحترام ، وينبغي أن تعامليني بالمثل لانك آنسة متعلمة مهذبة

وتكهرب الجو .. وتوقع الجميع أن تنفجر ســـونيا غاضبة . وأسرع جافريك يقول ليهدىء من توتر أعصابها :

ـ ردي عليه يا سونيا برفق .. لا تنخدعي بحديثه . انه غريب الاطوار ..

وقالت سونيا في تحد :

ـ ماذا تريد مني ؟..

ـ لا شيء .. فقط ..

وفجأة قال في تواضع وبرفق وهو يتقدم نحوها :

ـ كوني شفوقا بنا .. الا ترين اننا ثلاثة ضعاف جاهلين بؤساء .. وأنت شابة محترمة مثقفة ..

وازدحمت الالفاظ في فمه وهو ملهوف ليقول لها كل شيء . وأخيرا قال :

ـ ارجو أن تسمحي بالجلوس برهة لاشرح لك كل شيء ..

وجلست سونيا بجوار موقد الشاى . وانصرف بافيل الى المتجر . واتكمشت ماشا فى ركن الغرفة . واتخذ جافريك مكانه بجوار أخته :

وقالت سونيا :

ـ حسنا .. انني منصتة اليك ..

وسرد عليها كل شيء .. ولانت ملامحها ، وبدا الاشفاق مرسوما على وجهها بوضوح . ولما فرغ من حديثه قالت وهي تنظر الى ماشا بعطف شديد :

ـ يجب أولا أن نعرضها على طبيب ليفحصها ويكتب تقريرا رسميا عن حالتها .. وأنا أعرف طبيبا محترما .. هل تحب أن اصحبها اليه . أن عيادته مفتوحة الان .. لسوف تذهب اليه في مركبة .. والان استدع صاحبك لتقدمه الي

ولكن ايليا لم يتحرك من مكانه .. لقد جلس مدهوشا مما رآه على وجه سونيا .. لقد رأى ذلك الوجه الجامد المترفع يتحول فجأة الى وجه انسانة كلها العطف والحنان والاشفاق . وقد استدارت الى ماشا وقالت :

ـ لا تبكي يا عزيزتي .. ان الطبيب رجل طيب ، ولن يؤذيك . انه سيقدم لك شهادة بأن زوجك يعاملك بقسوة ومن حقك الطلاق منه .. ولسوف أعود بك الى هنا بمجرد أن تحصلي على هذه الشهادة ..

واقبل بافيل فى تلك اللحظة ، فقدمه ايليا الى سونيا التى مدت يدها تصافحه وتقول وهي تفحص وجهه :

ـ ان اسمي سونيا بيدجديا

ثم التفتت الى ايليا وأردفت :

ـ وأنت ، كما أظن ، ايليا لنييف !

وامسك ايليا بيدها فى لهفة وقال مهتاجا :

ـ نعم .. وما دمت انسانة كريمة الى هذا الحد ، فارجو أن تساعدى بافيل وفيرا أيضا ..

وظل ممسكا بيدها ـ رغم محاولاتها لتسحبها منه برفق ـ وهو يقص عليها مأساة بافيل وفيرا .. وقال فى النهاية :

ـ انه يتظم الشعر أحيانا .. وياله من شعر .. ولكنه صامت الآن .. وكذلك هي .. أحرقتهما قسوة الحياة .. ولعلك تظنين أن ما حدث يرجع الى أنها .. أنها ـ ولكن لا .. ليس هناك انسان شرير كله أو خير كله ..

فقالت سونيا متسائلة :

ـ ماذا !! ..

ـ أعني أن الانسان الشرير لابد أن تكون له بعض الصفات الطيبة. وكذلك الانسان الطيب لابد أن تكون له بعض الصفات السيئة ..

فأومأت الفتاة برأسها وقالت :

ـ هذا صحيح .. وأرجوك أن تترك يدى ، فانك تؤلمني ..

واعتذر ايليا . واستدارت سونيا لتقول لبافيل :

ـ من العار أن تقف مكتوف اليدين .. يجب أن تتخذ الاجراءات اللازمة لانقاذها .. أعهد بقضيتها الى محام . وسوف أساعدك في البحث عن المحامي البارع .. وتأكد أنهم سيطلقون سراحها .. نعم .. هذا مؤكد ..

وشعر ايليا بالزهو لوجود هذه الفتاة في غرفته .. وراح ينظر حينا الى ماشا وحينا الى بافيل الذى قال لسونيا :

ـ أرجوك أن تساعدينا اذا كان هذا ممكنا ..

ـ هل يمكنك أن تحضر الى بيتنا في السابعة مساء . ان جافريك يمكنه أن يرشدك اليه ..

ـ انني لا أدرى كيف أشكرك ..

ـ لا داعي للشكر .. المفروض أن يساعد الناس بعضهم البعض .

وهنا قال ايليا متهكما :

ـ وكيف يمكنهم هذا .. ؟

واستدارت اليه بسرعة ونظرت الى وجهه في تساؤل غاضب . ولكن الغلام جافريك أسرع وتناول يدها وقال :

ـ لقد حان موعد انصرافك ..

ـ نعم .. ارتدى ملابسك يا ماشا ..

ـ ليس لدى ما أرتديه ..

ـ حسنا .. هذا لا يهم .. هلم الى الطبيب . ولا تنس الحضور

فى الموعـد يا بافيل جراشوف .. وأنت يا ايليـا لتييف .. طـاب صباحك

وصافحته ثم سارت نحو الباب . وفجـأة توقفت واسـتدارت وقالت لايليا :

ـ نسيت أن أقول لك اننى آسفة على تصرفى معك .. كان ينبغى أن أرد عليك التحية بمثلها .. أكرر أسفى واعتذارى ..

واشرق وجهها بابتسامة بدت لايليا كأنها ضوء الشمس حـين يطرد النجوم من صفحة السـماء . ووقف الصـديقان يتبـادلان النظرات ، وأخيرا قال ايليا وهو يلكز صاحبه :

ـ فتاة نظيفة ! ..

وضحك بافيل وقال :

ـ انها مناسبة لك يا ايليا !

ـ ما رأيك فيها ؟ ..

ـ انها تكتسح كل شىء أمامها كالريح ..

ـ هذا سر الحياة النظيفة والتعليم يا بافيل .. ان مأساتنا هى الجهل ..

وقال بافيل :

ـ حقا انها سيدة لطيفة ومهذبة ..

وناصعة كالنجم المتألق ..

ـ وهى لا تخطىء كثيرا فى معرفة حقيقة الاوضاع ..

ولما عاد جافريك من توديعه لاخته قال له ايليا :

ـ ان لك أختا رائعة يا جافريك ..

ـ نعم .. وأنا فخور بها .. هل سنفتح المحل اليوم أم نجعـله اجازة .. فشد ما أنا فى حاجة الى نزهة خلوية فى المزارع ..

فقال ايليا :

ـ حسنا .. ليكن يومنا هذا عطلة .. لى ولك ..

وقال بافيل الذى شعر مرة أخرى بالاسى :

ـ لسوف أمضى الى مركز الشرطة.. ربما يسمحون لى برؤيتها..

ـ أرجو هذا .. اما انا فسوف أستريح من العمل اليوم

وانصرف بافيل الى مركز الشرطة ..

ومضى الغلام جافريك الى نزهته ..

وسار ايليا فى الطريق وهو يشعر بالحياة تنبض حوله .. بعض الطلبة يسيرون ضاحكين . عربة محملة بالخضروات .. شحات يسير معتمدا على عكازين .. سجينان يقودهما شرطى مسلح .. كلب صغير يهرب بقطعة عظم .. اناس يروحون ويجيئون .. ضجيج وعجيج ودقدقة اقدام وصياح وحديث .. كل هذا فى امتزاج يكون نبض الحياة ..

وسار ايليا فى فى الطريق متمهلا مستمتعا بالحياة النابضة حوله .. وبالشمس الساطعة فوقه .. وبالتفاؤل الذى يملأ قلبه .. واقتربت منه فتاة جميلة متوردة الوجنتين متألقة العينين ، وابتسمت وقالت وهى تمر بجانبه :

ــ ما أجملك !! ..

وابتسم لها ايليا ولم يحاول ان يستجيب لرغبتها ..

وسار فى طريقه حتى اقترب من سور المدافن .. وقرر ان يسير بحذائه ليحتمى به من حرارة الشمس .. وكان ثمة اشجار ظليلة باسقة الغصون ترتفع وراء السور وترسل ظلالها على جانب الطريق

ولما وصل ايليا الى بوابة المدافن ، استطاب الهواء الرطب المنساب منها ، فدخلها ، وراح يسير فى الممرات الظليلة ، ويتأمل الصلبان الفضية والذهبية الموضوعة على المقابر الرخامية ، ويستنشق عبير الزهور المتفتحة حول الاشجار .. ويحس بالراحة الكاملة فى ذلك الجو الرطيب الهادىء البعيد عن ضجيج الحياة وقسوتها ..

وظل فى سيره مستمتعا بالشذى والظل والسكينة ، وراح يتسلى بقراءة الاسماء المحفورة على شواهد القبور .. وفجأة شعر كأن سكينا اغمدت فى صدره حين قرأ على شاهد قبر هذه العبارة :

« هنا يرقد جثمان فازيلى جافريلوفتش بولكتوف ' التاجر » .

واغمض ايليا عينيه واحس كأنه انتقل فجأة من عالم كله سلام وسكينة الى جحيم كله عذاب وقسوة ..

وترنح فى وقفته ، واسرع يعتمد بجسمه الى شجرة بجوار القبر .. وهاجمته ذكريات الجريمة بعنف وكأنها وقعت منذ لحظات .. وتذكر وجه الرجل في لحظةالاحتضار ..وشعر كأن قطرات لعابه التى سقطت على يديه لا تزال تحرقه .. ولم يسمعه الا ان يفتح عينيه ويقول بهمس كالفحيح وكأنه يوجه الحديث الى انسان حى :

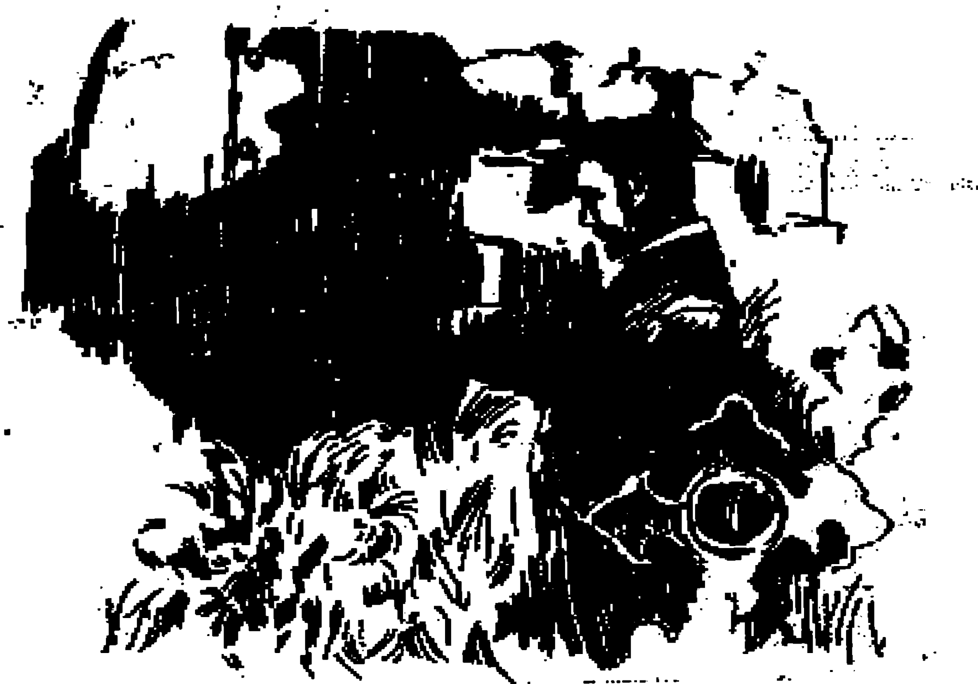
ــ لقد أفسدت على حياتي كلها .. عليك اللعنة .. هل تسمع .. كيف سأعيش حياتي بعد الآن .. لسوف أحمل وزر الجريمة حتى آخر لحظة من العمر ..

وأراد أن يصرخ عاليا .. وبذل جهده ليكبح جماح هذه الرغبة المسعورة ، وراح يرى بعين الخيال شريطا من الوجوه التي أفسدت حياته .. عمه .. بتروشكا . برنشكا .. تانيانا . كيريك الاحمق .. هذا اللعين بولكتوف .. أن ثمة زئيرا يملأ أذنيه ؛ وأنه ليشعر أن هؤلاء الناس يتجمعون لينقضوا عليه

واستبد به الفزع .. وسقطت قبعته من يده .. فلمـــا انحنى ليستردها ، رأى مرة أخرى تلك العبارة .. وتذكر التـــاجر .. تذكر المرابي الذى كان يمتص دماء الناس .. تذكر العجوز المخرف الذى كان يرتشف دماء الحسناء الشابة أولمبيادا ليلة بعد ليلة .. وأحس بغيظ من الغضب يملأ صدره .. وتمنى لو استطاع أن يحطم التابوت الرخامي ليبصق على وجه القتيـــل .. ولكن هـــذا مستحيل ...

ورفع قامته وبصق على القبر ، وشعر برعدة من الحقد تملأ صدره

وأخيرا استدار وغادر المكان وهو يدرك أنه لن يشعر بعد اليوم بطيب الحياة مهما بلغ من الثراء والاستقرار ..



الفصل الرابع عشر

حديث مع سونيا

لم يشأ ايليا ان يعود الى مسكنه .. شعر انه فى حاجة الى انسان يتحدث معه وينسى خلال الحديث آلام ضميره .. وأخذ يستعرض الاشخاص الذين يمكن ان يستريح معهم بالحديث فى ظروف كهذه .. ان سونيا لم تحاول ان تدعه الى بيتها كما دعت بافيل .. وبافيل مشغول بمأساته مع فيرا .. وعمه ترنتى لا يزال فى كيف يلتمس الغفران ، والغلام جافريك اصغر من ان يتبادل معه الحديث الجاد .. ولم يبق امامه الا صديق الصبا ياكوف ..

وفى غرفة ياكوف بالمنزل اللعين .. منزل بتروشكا ... جلس الصديقان يشربان الشاى ويتحدثان ..

وقال ياكوف مغيرا مجرى الحديث الى الموضوع الذى يؤثره على غيره .. موضوع الكتب التى قرأها :

ــ اتعرف يا ايليا انى أقرأ الآن كتابا ممتعا جدا اسمه جوليا او قلعة ماتزيني السرية ؟ هل تقرأ كثيرا هذه الايام ؟

فهتف ايليا قائلا :

ــ اللعنة على قلاعك السرية .. ان الحياة كلها قلاع سرية رهيبة لا يعرف الانسان طريقه فيها ..

فنظر ياكوف اليه فى عطف وقال :

ــ هل حدث لك شىء مزعج يا ايليا لتييئس ؟؟

واراد ايليا ان يسرد عليه مأساة ماشا ، ولكن ياكوف اردف قائلا قبل ان ينطق ايليا بكلمة :

ــ انك دائما هكذا .. ضيق الصدر كأنك تحمل عبئا ثقيلا على

كتفيك لا تستطيع الخلاص منه .. ان الحياة لا تحتمل هذا كله .. ونحن فيها غير ملومين على شيء .. اننا مخلوقات مسيرة بقدر لا حيلة لنا معه ..

وراح ايليا يشرب الشاى دون ان يرد ..

وعاد ياكوف يقول :

ــ يقولون ان كل انسان ينال ما يستحق .. وهذه هي الحقيقة .. انظر الى ابنى ! انه رجل قاس متحجر القلب لا يرحم .. وفجأة يسوق اليه القدر زوجة اقسى منه واقوى واعنف . انها الان تذيقه من نفس الكأس التى طالما اذاقها للغير .. لقد بدأ يدمن الخمر لينسى عذابه معها .. وهكذا الامر .. لكل انسان من نوع ابى زوجة مثلها فى انتظاره لتعاقبه على آثامه

وشعر ايليا بالسأم من هذا الحديث ، فدفع بقدح الشاى بعيدا عنه وقال بصوت ادهشه :

ــ حسنا وماذا تنتظر انت ؟

ففتح ياكوف عينيه عجبا وقال :

ــ ماذا تعنى ؟!..

ــ اعنى ماذا تنتظر فى المستقبل .. ماذا تنوى ان تفعل ؟!

واطرق ياكوف برأسه واستغرق فى خضم من الافكار .. ولما أعاد ايليا عليه السؤال ، رفع رأسه وقال :

ــ اى مستقبل ينتظرنى ؟ لا شيء .. اننى سأموت قريبا جدا ، وهذا كل شيء ..

ثم أشرق وجهه بابتسامة سعيدة واردف قائلا :

ــ ان احلامى كلها الان زرقاء اللون .. أرى اللون الازرق فى كل احلامى .. اراه فى السماء وفى الارض .. فى الازهار والاشجار والعشب .. فى كل شيء والسكون حولى منتشر وانا أسير .. أسير الى ما لا نهاية وبلا اى شعور بالتعب .. والاحلام الزرقاء معناها النهاية القريبة ..

فنهض ايليا وقال فى ضيق :

ــ حسنا .. سوف انصرف الان ..

ــ لماذا تتعجل .. ابق برهة اخرى ، كيف حال ماشا ... سمعت

انها تقاسي في حياتها ..

ـ نعم ..

ـ مثلي .. ومثلك .. يبدو انك غير سعيد في حياتك يا إيليا !

ولم يرد ايليا عليه وانما قال :

ـ طاب يومك يا ياكوف .. ارجو ان تغفرلي اذا ..

ـ ان الله وحده هو الذي يغفر لنا ..

وانصرف ايليا دون ان يقول شيئا ...

***

واصبحت صونيا ـ اخت جافريك ـ تاتي الى المتجـــر كل يوم تقريبا . وكانت تاتي بسرعة وتنصرف بسرعة بعد ان تتبادل مع اخيها ومع ايليا حديثا قصيرا .. وفي ذات يوم قالت لايليا :

ـ هل تحب عملك ؟..

ـ لا استطيع ان اقول انني احبه الى حد كبير .. ولكن على الانسان ان يكسب قوت يومه ..

فارسلت اليه نظرات فاحصة كأنها تقتحم بها اغوار نفسه وقالت :

ـ الم تحاول ان تكسب قوت يومك من عمل آخر ؟..

ـ ماذا تعنين ؟..

ـ اعني الم تحاول ان تعمل وتتعب وتعرق ؟

فرد عليها في دهشة وارتباك !

ـ ان حياتي كلها عمل وتعب وعرق .. انني هنا اعمل من الصباح الى المساء كما ترين .

ـ هل تظن أن بيع الاشياء يعتبر عملا شريفا ؟ ألا ترى الفرق بينه ، وبين الاعمال الاخرى ؟

ـ اي فرق تعنين ؟!

فقالت وهي تحاول ان تبتسم :

ـ اعني الفرق بين الشخص الذي يصنع الاشياء بقوته وعافيتـه ومجهوده وبين الاخر الذي يأخذ هذه الاشياء ليبيعها ويربح منها

ثم اردفت قائلة :

ـ هل تعتقد أن التجارة عمل يحتاج الى مجهود كبير ؟

ولم يسعه الا ان يحني راسه ويقول معترفا :

ـ اعترف ان التجارة عمل سهل جدا اذا عرف الانسان اسرارها .. وكل انسان يستطيع ان يعرف هذه الاسرار بالتجربة والمران .. ولكنها ضرورية للناس .. ولا غنى عنها .

فهزت كتفيها وانصرفت مسرعة .

وأدرك ايليا انها انصرفت غاضبة وان كان لا يدرى لماذا . ومما ضاعف من حيرته لتصرفاتها ، ان بافيل كان يحدثه بحماس عن طيبة قلبها ، وعن جمال الحياة فى مسكنها ، ومن نظافة كل شىء فى حياتها ..

ـ كلما ذهبت لزيارتها يا ايليا استقبلتنى بترحيب ، ودعتنى لمشاركة الاسرة فى تناول العشاء أو شرب الشاى . وان ضيوف الاسرة كثيرون .. وهم يغنون ويضحكون ويتحدثون عن الكتب ويتناقشون فى الثقافة والادب .. آه .. ان مسكنها يكاد يزدحم بالكتب التى لا حصر لها .. والمسكن ليس كبيرا ، وكلنا نتزاحم فيه ، ولكننا نضحك دائما . والضيوف جميعا من المثقفين .. منهم المحامى والطبيب والصحفى والكاتب والطالب الجامعى ولكن الانسان لا يشعر معهم انه اقل شأنا منهم .. هذا اجمل ما فى الامر كله

وقال ايليا باكتئاب :

ـ لا اعتقد انها سوف تدعونى يوما الى بيتها .. انها شديدة الكبرياء ..

فهتف بافيل قائلا فى احتجاج :

ـ هى ؟ انها البساطة المجسمة . ولماذا تنتظر دعوتها .. اذهب بنفسك وسوف ترى كيف ترحب بك . ان بيتها مثل النادى النظيف المحترم .. كل من يدخله يلقى فيه الترحيب والاحترام ، انظر الى ؟ اننى لا اقارن بهم . ومع ذلك اشعر كأنى واحد منهم رغم زياراتى للبيت مرتين فقط .. انهم اناس لطاف مهذبون .

ـ وكيف حال ماشا ؟ ..

ـ انها تتحسن كثيرا .. وهم يهتمون بأمرها كل الاهتمام . واصبحت الابتسامة لا تفارق وجهها الان ويؤكد المحامى ان العدالة سوف تأخذ بتلابيب زوجها اللعين .. سوف يدفع ثمن قسوته عليها غاليا .. نعم .. سوف تنال حريتها مع تعويض ضخم ربما يصل الى

تصف ثروته .. وكذلك فيرا .. انهم سيهتمون بقضيتها ويتعجلون تقديمها للمحاكمة واعتقد انها ستظفر بالبراءة .

ــ وهي .. ماذا عنها ؟! ..

ــ انها سيدة الجميع .. تدير كل شيء في البيت .. والويل لمن يقول عبارة غير لائقة .. انها تتحول الى نمرة متوحشة .

فضحك ايليا وقال :

ــ اتقول لي هذا ؟ انني اعرفه جيدا ..

وشعر بالحسد لبافيل . وتمنى من صميم قلبه لو استطاع ان يزور سونيا في بيتها .. ولكن كبرياءه يمنعه .. وتعجب من أمرها .. إنها أول انسانة يراها لا تحاول أن تأخذ من الناس دون أن تعطي شيئا .. بل انها تحاول ان تعطي كل ما لديها دون ان تطمع في شيء . فها هي ذي تبذل جهدها لمساعدة بافيل وفيرا وماشا وهي تعلم تماما انهم فقراء ، انهم عاجزون عن ان يردوا لها الجميل ..

ولكن لماذا تكره الذين يشتغلون بالتجارة ؟!

وسألها ذات يوم قائلا وهو يركز نظراته على وجهها :

ــ هل افهم من تصرفاتك واحاديثك انك لا تحبين الذين يشتغلون بالتجارة ؟

ــ نعم .. لا احبهم ..

ــ لماذا ؟ .

ــ لانهم يعيشون على حساب الغير .

فقطب ايليا جبينه وقال في احتجاج :

ــ ليست هذه هي الحقيقة ..

فردت قائلة ببرود وهي تشير الى لفة شريط :

ــ بكم اشتريت لفة الشريط هذه ؟

ــ بسبعة عشر كوبك ..

ــ وبكم تبيعها ؟ ..

ــ بعشرين ...

ــ اترى انك تكسب ثلاثة كوبكات بينما صانع الشريط احق بها . هل فهمت .

ــ لا ..

فبرقت عيناها بالغضب والاستنكار وقالت :
ــ اذن فلن يفهم احدنا الاخر يوما .. ان التاجر يقف بين الصانع والعميل ويرفع السعر دون ان يضيف شيئا الى قيمتها الحقيقية .. ان التجارة سرقة
فهتف قائلا في احتجاج :
ــ لا .. ليست التجارة سرقة .. انني لا اتفق معك في هذا .
وهزت كتفيها واغتصبت ابتسامة شاحبة وقالت وهي تنصرف :
ــ هذا هو رايي .. لن نتفق أبدا .. وفيما هي تنصرف صاح قائلا في غضب :
ــ ان التجارة عمل شريف رغم كل ما تقولين !
وبعد انصرافها ، تهالك جالسا وراح يفكر فيها باستياء وحزن :
ماذا فعل معها حتى تعامله بهذه القسوة .. انها تأتي وتوجه بالكلام ثم تنصرف على هذا النحو .
حسنا .. لسوف يعرف كيف يعاملها اذا كررت هذه المحاولة معه

***

وجاء في اليوم التالي .. واستعد لنزالها .. ومن ثم رد على تحيتها ببرود
ولكنه فوجيء بها تبتسم في رفق وتقول له :
ــ ماذا بك .. انك تبدو شاحب الوجه ..
ــ انني بخير ..
ــ ارجو الا تكون مستاء من احاديثي معك ..
ــ لقد اعتدت على اساءة الناس لي ..
ــ انني لم اقصد الاساءة اليك ..
فهز كتفيه وقال ببرود :
ــ ليس من السهل ان تسيئي الى .. انك طيبة القلب . والطيور التي مثلك لا تطير عاليا ..
وشدت سونيا قامتها ، ونظرت اليه في تحد ، ولكنه لم يبال بامرها وانما استطرد يقول ليفرغ ذات نفسه :
ــ من السهل جدا ان يتظاهر انسان بمظهرك المتكبر المترفع انه لا يكلف أحدا أي شيء . ولست أدرى من أين لك كل هذه الكبرياء

وأنت من رقة الحال بحيث تعجزين من شراء ثوب جديد كل عام .

فردت قائلة فى صوت خافت :

ـ كن على حذر فى أقوالك ..

وابتهج ايليا حين رأى احمرار وجهها واختلاج طرق انفهـــا ، واستطرد يقول بلا مبالاة :

ـ انني اعبر عن رأيي . ان تظاهرك بالكبرياء شيء رخيص يستطيع كل انسان أن يفعله دون أن يكلفه شيئا ..

وصاحت سونيا غاضبة :

ـ انني لا أتظاهر بغير حقيقتي ..

واشرع الغلام جافريك وامسك بيدها وقال :

ـ هلم نخرج من هنا ياسونيا .. لم يعد لنا مكان فى هذا المحل اللعين . فرماهما ايليا بنظرة باردة وقال بصوت يقطر بالحقد :

ـ اخرجا .. لم أعد فى حاجة اليكما .. وليس بكما حاجة الي .

ونظر الاثنان اليه فى دهشة ، ثم اسرعا بالانصراف وهو يشيعهما بضحكة ساخرة ..

وامضى يومه وهو يتمنى أن تحضر تانيانا لكي يطردها من المتجـــر كما فعل بسونيا وجافريك .. كان يشعر بالرغبة فى القسوة على كل مخلوق .. حتى على عملائه .. ولشد ما تمنى لو أنه اســتطاع أن يطردهم جميعا .. الواحد بعد الاخر فلا يعودون اليه ..

وعند ظهيرة اليوم التالى ، أقبل بافيل متجهم الوجـــه ، وقال دون ان يلقي بالتحية :

ـ لماذا عاملت سونيا بهذه القسوة والترفع .. ؟

وهز ايليا كتفيه ولم يجب . واستطرد بافيل قائلا بنفس اللهجـة الغاضبة :

ـ بأى حق تعاملها بمثل هذه الخشونة يا ايليا لينييف !!

فنظر ايليا فى استهانة وقال ببرود :

ـ كان من الواجب أن تلقى بالتحية قبل أن تبدأ الحديث

فاربد وجه بافيل وقال بغضب متزايد :

ـ هل اصبحت ثريا الان يا ايليا لنييف ؟ هل امتــــلأت بطنك وغدوت تحتقر الفقراء وتطردهم من متجرك ؟ انسيت قولك ذات يوم

انك لم تر في حياتك انسانا يساعدك .. ولما اصبحت قادرا على مساعدة الناس رحت تطردهم ؟!

فقال ايليا دون أن يفقد زمام اعصابه :

ــ لا تحاول أن تعلمنى ماذا ينبغي أن أفعل . انني افعل ما أحب، وأعيش كما أريد . لقد سئمت النظر الى وجوهكم جميعـــا .. واذا كنت غاضبا من اجلها وأجل أصحابها ، فاذهب وعش معهم ولا ترينى وجهك بعد اليوم ..

وصاح بافيل مستنكرا :

ــ انني ذاهب للحياة معهم فعلا .. ان بيتهم هو المكان الوحيـــد النظيف الذى تطيب فيه الحياة ..

ــ حسنا .. اذهب ولا تصرخ هكذا . دعني وشأني .

وخرج بافيل مسرعا ..

وشعر ايليا بعد خروجه بأن كل شيء في داخله قد مات . وخيل اليه أن كل حركة وخلجة وفكرة قد توقفت .. لم يعد هناك تفكير في شيء .. لم تعد هناك رغبة في شيء .. بل لم يعد هناك شيء غير احساس رهيب بالوهن والضعف والاعياء والملل .. وبمثل هـذا الاحساس أمضى نهاره .. وليلته .. ليلته المزدحمة بالاحلام المزعجة ومرت أيام أخرى وليال كثيرة .. واقبل العملاء وانصرفوا .. في كل لحظة .. وفي كل ساعة . كل منهم يأتي ليشترى حـــاجته وينصرف .. وكان يشيعهم بنظرات غاضبة .. انهم في غير حاجة اليه .. ولا هو بحاجة اليهم .. انه منعزل عن الجميع ..

لقد اصبح يعيش بين الناس وحيدا .. بلا رغبات ، ولا اهداف ، ولا آمال ..



الفصل الخامس عشر

المحاكمة ..

كان ايليا جالسا فى متجره ذات صباح مكتئب الوجه كالمعتاد ، وكان عمه الاحدب ترنتى جالسا على مقعد جافريك بالقرب من الباب ، ينظر الى الشارع ببلاهة وذهول . وكان قد عاد فى الليلة السابقة فجأة من رحلته الى كييف . وقرر ايليا أن يستبقيه معه ليقوم بالاعمال التى كان يقوم بها جافريك

واقبلت تانيانا لازينا — التى كانت فى رحلة قصيرة بالارياف — ودخلت المتجر ، ثم توقفت ونظرت الى الاحدب ترنتى ولوت شفتيها وقالت :

— أهذا عمك الذى طالما حدثتنى عنه ؟ ! .

— نعم ..

— هل سيقيم معك ؟ ..

— بكل تأكيد ..

وكان رنين التحدى فى صوته سببا لان تمتنع عن الاستطراد فى الحديث . وكان ترنتى يحملق فى بلاهة الى تلك الفتاة الحسناء المتوثبة كالطائر ، ثم ارتسمت علامات الدهشة على وجهه حين رآها تقلب صفحات دفتر الحسابات ، وتتحدث فى نفس الوقت قائلة :

— كانت رحلة جميلة فى قلب الريف .. لم تكلفنى الا قليلا .. ولكنها أفادتنى صحيا الى حد كبير .. وما أجمل النهر هناك .. رائق المياه ، عذب المذاق ، ظليلا رطيبا ، وما أجمل صحبة الناس لقد كان أحدهم — وهو موظف بادارة البرقيات — يعزف

لنا على الكمان كل ليلة . وتعلمت التجديف أيضا . ولـــكن .. الاطفال .. كانوا فى كثرة الذباب وسخافته .. لا يكفون عن طلب الاحسان والاستجداء .. لا شك ان اباءهم يدربونهم على التسول

فقال أيليا بجفاء :

ـ لا .. انك مخطئة فى هذا الظن . ان أباءهم وأمهاتهم يعملون طيلة النهار ، ولهذا لا يوجد من يعنى بأمر هؤلاء الاطفال ..

فضحكت تانيانا وألقت دفتر الحسابات وقالت :

ـ هل انت غاضب ؟ لماذا ؟ ..

وشعر ترنتي ان الجو سيتعكر ، فنهض وغادر المتجر الى الشارع. اما ايليا فقد استدار وامسك بكتفى تانيانا وقد شعر بمـــزيج من الكراهية لها مع الرغبة الجامحة فى احتضانها وتحطيم ضـــلوعها والاستمتاع بسماع هذه الضلوع وهى تتحطم بقوة عناقه

وجذبها اليه وهو يكشر عن اسنانه ، ولكنها امسكت بذراعيـــه وقالت محذرة :

ـ لا .. هل جننت .. دعنى .. لا يليق هذا فى المتجر .. اسمع .. لا يمكنك أن تدع عمك يقيم معك .. انه احـــدب والنـــاس سينفرون منه .. كفى .. كفى .. يجب أن تبحث له عن مكان آخر ..

ولكنه كان قد ضمها الى صدره وراح ينحنى بوجهه عليهـــا .. ولكنها قاومته قائلة :

ـ لا .. ليس هنا .. هل جننت .. قد يدخل اى عميل فى أية لحظة ..

وفجأة ، وبمرونة السمكة ، انفلتت من بين يديه ، ووثبت الى باب المتجر تلهث ، ثم قالت وهى تسوى صدارها :

ـ ما اخشنك وافظ عناقك .. الم يكن فى مقدورك الانتظار !

وراح ايليا يحملق فيها بانفاس لاهثة .. وكان فى تلك اللحظة يرى انها التجسيـــد الرهيب لكل مالقيـــه فى الحياة من شرور وآثام ..

وقالت له هامسة :

ـ ان لهيب العاطفة شىء جميل .. ولكن الاجمل منه قدرة الانسان

على ضبط مشاعره ..

ـ أخرجي من هنا ..

ـ انني خارجة . ولكنني لن استطيع أن أراك اليوم .. ولا تنس ان بعد غد هو اليوم الثالث والعشرون .. عيد ميلادي . . هل ستأتي ؟

وراحت تعبث بقلادتها دون ان تنظر اليه . أما هو فقد هتف قائلا بحدة :

ـ اخرجي من هنا ..

وانصرفت بسرعة . وفي اللحظة التالية أقبل ترنتي قائلا :

ـ أتلك شريكتك ؟!

فلما أومأ ايليا برأسه ، قال الاحدب :

ـ أترى .. انها صغيرة .. ومع ذلك ..

ـ ناعمة كالحية الرقطاء ..

والتزم ترنتي الصمت حين رأى الغضب مرتسما على وجه ايليا .

***

وفيما كان ايليا ينظر الى الجو المكفهر خارج المتجر ، شعر بالرعدة وقال لنفسه .. يجب ان أتخلى عن كل شيء .. عن المتجر وغيره .. ويستطيع عمي ترنتي أن يديره لحسابها .. أما انا .. فيجب أن أنطلق في الدنيا الواسعة .

وبعين خياله راح يتصور الحقول الممتدة الخضراء ، والسماء الواسعة الصافية المرصعة بالسحب البيضاء ، والطريق العريض المحفوف بالشجر ، وهو سائر فيه ، وقدماه تغوصان في الطين .. ووجهه منتعش بالمطر ، والمكان خال من كل شيء ، حتى من البلابل على الشجر . . ولكنها السحب فقط هي التي تتحرك في السماء بلا صوت ..

اذا لم يتحقق لي هذا ، فسوف اقتل نفسي

هكذا انتهى به التفكير ..

***

وبعد يومين استيقظ ليرى على وجه التقويم السنوي أن اليوم هو الثالث والعشرون من الشهر . . وتذكر انه اليوم المحدد لمحاكمة فيرا ومن ثم نهض مسرعا ، واغتسل وشرب الشاي وارتدى ملابسه .

واندفع نحو المحكمة

وفيما كان يدخل قاعة المحكمة ، لمح ظهر بافيل ، فابتهج وأمسك بطرف كمه ، وابتسم له ابتسامة عريضة ، ورد بافيل عليها بمثلها ، ولكن بلا ابتهاج

ومرت لحظات وكل منهما ينظر في وجه الاخر .. وأخيرا قال بافيل بابتسامة شاحبة :

ـ هل هي هنا ؟ ..

ـ من .. ؟

ـ صاحبتك سونيا ..

ـ انها ليست صاحبة أحد ..

ولما دخلا قاعة المحكمة ، قال ايليا :

ـ هلم نجلس معا ..

ـ لا .. ان معي بعض الاصدقاء . طاب يومك ..

واسرع بافيل مبتعدا . ولم يلبث ايليا ان رآه يجلس في الصف الثالث بجوار سونيا التي التفتت اليه ـ الى ايليا ـ وارسلت اليه نظرة مشحونة بالغضب والاحتقار ..

وامتلأ قلب بافيل بالغيظ والحنق وهو يرى ايليا وقد صلح حاله ، وتحسنت صحته في الاسابيع القليلة السابقة ، وبدا في ملابسه الجديدة النظيفة انسانا آخر

ومشيت فيرا الى قفص الاتهام حيث وقفت وراء القضبان بملابس السجن الرمادية ، ومنديل أبيض على رأسها . ورآها ايليا جانبيا .. ولمح خصلة من شعرها الذهبي على جبينها ، وكان وجهها شاحبا ، وشفتاها مزمومتين ، ونظراتها مركزة على القاضي جروموف .

وأخذت كلماتها ترن في أذنيه بغموض :

ـ نعم .. نعم .. لا .. نعم ...

وكان القاضي جروموف ينظر اليها بعطف ويقول لها بصوت رقيق :

ـ فيرا كابيتانوفا .. هل تعترفين بأنك في الليلة ـ ..

وخيل الى ايليا ان صوته الرخيم كان يأتي خافتا الى اذني فيرا ..

ونظر الى بافيل .. فرآه جالسا منحنيا على نفسه ، مطرق الرأس، بينما جلست سونيا بجواره منتصبة القامة ، مرفوعة الرأس ، ينم وجهها على أنها تصدر فى نفسها جميع مختلف الاحكام على الغير : على فيرا .. والقضاة .. والمحلفين .. والنظارة وكانت لا تكف عن التلفت حولها وقد زمت شفتيها وتالقت عيناها بنظرات باردة مشحونة بالترفع والكبرياء .

وكانت فيرا تقول بصوت له رنين الخزف حين يقرع بالملعقة :

ـ اننى أعترف .

واقتربت رأسا اثنين من المحلفين ، دودنوف وجاره ، وراحـــا يتهامسان ويبتسمان وهما يختلسان النظر الى فيرا . ومال بتروشكا الخمار ـ وكان بين المحلفين ـ الى الامام بوجه محتقن وسوالف تختلج ، وكذلك ركز بقية المحلفين نظراتهم على فيرا باهتمام خاص عرف ايليـا مصدره .. وشعر من ثم بالاشمئزاز والنفور .

هؤلاء هم قضاتها .. ومع ذلك كانوا يتحسسون جسدها بنظراتهم الحيوانية . ولشد ما تمنى ايليا فى تلك اللحظة لو انه صاح قائلا ببتروشكا الخمار :

ـ ها أيها الحيوان .. ماذا يدور برأسك من أفكار ؟

وشعر بغصة فى حلقه تمنعه من الحديث .

وكان المدعى العام يقول للمتهمة وهو يلوك الالفاظ فى فمه قبل أن يطلقها :

ـ فيرا كابيتانوفا .. هل تمارسين البغاء منذ مدة طويلة ؟

وأحنت فيرا رأسها وكأن السؤال كان صفعة على وجهها ، ثم قالت :

ـ نعم . .

وسرى صوتها الهامس ، الحاسم ، كأنه حفيف أفعى فوق النظارة .. وازداد رأس بافيل انحناء ، وعاد المدعى العام يقول :

ـ منذ متى . ! ؟

ولم تجب فيرا ، وانما وقفت مركزة أنظارها على القاضى جروموف. واستطرد المدعى العام يقول :

ـ منذ عام .. اثنين .. ثلاثة .. اربعة ..

ولكنها ظلت صامتة وقد بدت كأنها تحولت الى تمثال من الصخر. وقال القاضي جروموف :

ــ من حقك طبعا أن ترفضي الاجابة على أى سؤال .

وهنا وثب محاميها واقفا بقامته الطويلة النحيلة ، وأنفه البارز ، وقال :

ــ اخبري المحلفين عن الظروف التي ارغمتـــك على ممارسة هذه المهنة ..

ــ لم يرغمني شيء على ممارستها .

ــ لا لا .. ليست هذه الحقيقة .. أعتقد أنك قلت لي بنفسك

فهتفت قائلة بصوت غاضب :

ــ اعتقد ما شئت .. ولكنني لم أقل لك شيئا .

ثم التفتت الى قضاتها والمحلفين واردفت قائلة وهي تومىء برأســـها نحو المحامي :

ــ هل يمكن لي أن أتجاهله ؟ !

ومرة أخرى انتشر في القاعة ذلك الحفيف الذي يشـــبه زحف الثعبان ..

واضطرب ايليا وتظر في احتياج الى بافيل .. كان يتوقع عنه أن يقول أو يفعل شيئا .

ولكن بافيل ظل مطرقا يختلس النظر بين الحين والاخر الى ظهـــر الرجل الجالس أمامه . وابتسم القاضي جروموف لغيرا ، ووجه اليها بعض كلمات جعلتها تقول بصوت حازم ثابت :

ــ انني أبحث عن المال الكثير .. وقدسرقت الحافظة لهذا السبب. ذلك كل ما في الامر .

وسرى الهمس بين المحلفين ، وارتســـم الاكتئـــاب على وجوههم ، وحتى القضــــاة بدا عليهم الاستياء . وارتفع صوت المدعي العـــام خلال الصمت الثقيل يقول :

ــ ما دامت المتهمة معترفة بجريمتها فلا داعي لان ..

وضاعت بقية الفاظه في سمع ايليا الشـــارد الذهن . وأراد أن يغادر القاعة ، ولكن الحاجب منعه . وجلس ينظر الى وجه بتروشكا الخمار ، المحتقن وكأنما هو العدالة نفسها ، بينما أخذ القاضي يصدر

حكمه بصوت الرجل الهادىء الذى يتحدث مع زميل له عن شـــأن بسيط من شئون الحياة ..

وصاحت فيرا وراء القضبان حين أخذ القاضي يتحدث عن مهنتها :

ـ لا لا ؛ ... لا داعي لهذا الحديث .. انني معترفة بكل شيء ..

ثم سقطت في القفص تتلوى وتنتحب .

وشعر ايليا بالفزع حين خطرت له هذه الفكرة : كيف يكون الحال لو انني اعترفت بجريمتي ؟ .. ســـوف ينطق بتروشـــكا بقـرار المحلفين ، وأذهب أنا الى العذاب في المنفى .. ويبقي هو ـ بتروشكا ـ يعيش في خمارته وبيته كأنه لم يفعل في حياته شيئا .

ووثب واقفا .. وراح يشق طريقه خارج القاعة ، ورأى بافيـــل معتمدا بكتفه الى جدار القاعة شاحب الوجه ، مرتعد الفكين . ونظر ايليا اليه وقال بغضب :

ـ هه ؟ ما رأيك ؟

وفتح بافيل فمه ليقول شـــيئا .. ولكنه لم يســـتطع ان ينطق بكلمة . وعاد ايليا ليقول :

ـ دمرت حياتها ؟ . أليس كذلك ؟ .

ـ أنا ، لقد كنا ننوى ان ..

ـ ماذا كنت تنوى ؟ هل كنت تنوى أن تقول للقاضي أنها سرقت المال من أجلك ؟

ألا يكفي أن يكون رجل مثل بتروشكا هو الذى يصدر الحـــكم عليها !

وحاول بافيل أن يقول شيئا . ولكن ايليا انصرف عنه ، وغـادر المحكمة ، وسار في الشوارع على غير هدى ، كأى كلب ضال ، حتى اذا أتى الليل وأضيئت المصابيح ، شعر بالتعب وبالجوع .

وكانت الأضواء تنساب من النوافذ ، وترسل حزما من الأضـــواء الشاحبة على الطريق .. ونظر ايليا الى هذه النوافذ .. وتذكر ان بتروشكا الخمار قد يكون الآن جالسا في حانتـــه ، يشرب الخمر ، ويتحدث عن جمال فيرا التي أرسل بها الى السجن !!

وعبر الشارع في غير حذر .. وخطر له أن يدخل حانة ليسكر . ولكنه فوجىء بصيحة رجل يقول له :

ـ ابتعد من الطريق ..

ووثب تلقائيا الى الطوار .. وكاد وهو يثب أن يقع تحت سنابك جواد ينطلق بمركبة خفيفة في أقصى سرعة . ولما أفاق من هـــول الموقف قال لنفسه :

ـ ان الذى يقتلنى يجب أن يكون شيئا أكبر من جواد !

وابتسم فجأة وقال :

ـ آه .. ان الليلة عيد ميلاد تانيانا .. فلماذا لا أذهب اليها ؟

وأوقف مركبة في الطريق .. واستقلها الى بيت تانيانا ..



الفصل السادس عشر

جدار في الظلام

وبعد لحظات كان واقفا بباب مسكن تانيانا .. ينظر الى غرفة الطعام بعينين تطرفان من وهج الانوار . ولم تلبث أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة حين رأى المدعوين الجالسين حول المائدة .

وصاح كيريك قائلا :

ـ آه .. لقد حضرت أخيرا .. هل أحضرت معك علبة شيكولاته ؟ ماذا أتحضر الى حفلة عيد ميلاد بلا هدية ؟

وأردف كيريك عبارته الاخيرة بضحكة عالية . وقالت تانيانا :

ـ أين كنت ؟ !

وأمسك كيريك بذراعه وراح يقدمه للمدعوين .. وشعر ايليا ـ كما لو كان في حلم ـ بالايدى الدافئة تصافحه ، والوجوه المتباينة تبتسم له ، وشم رائحة الشواء وسمع همهمة اصوات النساء ، واحس بعينيه تؤلمانه ، فلم يعد يرى غير بقع من الالوان والاضواء ..

ولما جلس أدرك من نبض قدميه مبلغ ما كان عليه من تعب وارهاق . وبدون ان ينطق بكلمة ، تناول شريحة خبز وراح يمضغها . وقالت له تانيانا :

ـ انك لم تهنئني بكلمة . حقا انك ضيف مهذب . تأتي وتجلس وتتناول طعامك دون أن تلفظ بحرف واحد .

ثم وكلته برفق من تحت المائدة وهي تصب الشاى في الاقداح . ووضع ايليا شريحة الخبز على المائدة وفرك يديه وقال :

ـ لقد أمضيت نصف النهار في المحكمة .

وخيم السكون على الغرفة . وتركزت الانظار على ايليا .. وشعر هو بافكاره كأنها تتقطع الى أجزاء صغيرة وتدور حول رأسه . وقالت احدى المدعوات وهي تقدم صندوقاً من الحلوى الى الضيوف ليتناولوا حاجتهم منه :

ـ ان الانسان يرى في المحكمة أعجب قصص الحياة .

واحمر وجه تانيانا ، وانطلق كيريك ضحكة بصوت مرتفع .

وقال في النهاية بصوت بارد :

ـ اذن لقد كنت في المحكمة اليوم .

وأدرك ايليا ان عبارته اثارت جوا من الامتعاض بين المدعوين . ولكنه لم يأسف لهذا ، بل شعر بفيض من الارتياح .

وقال موظف بادارة البرق . وكان شابا شاحب اللون أسود العينين :

ـ لقد شهدت ذات يوم محاكمة قاتل ..

وقالت زوجة المدعو ترافيل :

ـ انني أحب أن أسمع وأقرأ عن الجرائم والمجرمين .

وتلفت زوجها الى الضيوف وقال :

ـ أن محاكمة المجرمين بركة على المجتمع .

وانقسم المدعوون الى طائفتين : طائفة تستمع الى موظف ادارة البرق ، وأخرى الى المدعو ترافيل .. ولاحظ ايليا أن تانيانا وزوجها كانا ينظران اليه في خوف من أن يقول شيئا يغضب مدعويهما ..

ونهضت تانيانا الى الغرفة المجاورة لتقوم ببعض الاعمال . وكانت تشير الى ايليا خلسة ليلحق بها . ولكنه تجاهل اشاراتها ، وشعر بالارتياح وهو يرى أمارات الاستياء تزداد وضوحا على وجهها .

وفجأة سمع كيريك يقول له :

ـ لماذا أنت جالس هكذا كالتمثال يا ايليا لنييف ؟ قل شيئا ! لا تخش أن تقول ماتريد . ان هؤلاء قوم مثقفون ، ولن يسجلوا عليك اقوالك !

وعندئذ قال ايليا بصوت مرتفع :

ـ لقد حاكموا اليوم فتاة أعرفها .. انها سيدة من بنات الهوى .

ولكنها مع هذا محترمة !

ومرة أخرى وجد نفسه مركز اهتمام الجميع . وساد الصمت . وتوقفت حركة الاكل . وهدأت صلصلة الملاعق والشوك على الاطباق . وأخذ ايليا بهدوء يمسح وجوه الجميع بنظراته مستطردا :

ـ لماذا تندهشون ؟ ان بين بنات الهوى سيدات جديرات بالاحترام

وأسرع كيريك يقول :

ـ نعم .. نعم .. ولكن لا داعى لان تغالى في هذا الامر .

فرد ايليا قائلا بسخرية :

ـ ان ضيوفك مثقفون .. وهم لن يسجلوا على اخطائى ق الحديث .

وشعر فجأة كأن قنبلة انفجرت في أعماق نفسه ، فابتسم في رفق ، وخيل اليه أن قلبه توقف عن النبض وهو يلقي بحديثه الاعوج :

ـ وكانت هذه الفتاة متهمة بسرقة حافظة نقود من تاجر غنى .

وهتف كيريك قائلا بوجه يثير الضحك :

ـ مدهش .. مدهش . !

وعاد ايليا يقول :

ويمكنكم جميعا أن تدركوا متى وكيف سرقت الفتاة حافظة الرجل . ولعلها لم تسرقها .. ربما كانت هدية منه لها في لحظة النشوة .

وصاح كيريك مبتهجا :

ـ تانيانا .. تعالى .. ان ايليا يسرد علينا قصة ممتعة .

ولكن تانيانا كانت في تلك اللحظة قد وقفت بجوار ايليا قائلة بصوت ينم عن الاستخفاف :

ـ انني لا أجد في هذه القصة ما يثير . انها قصة عادية جدا .. لا شك أنكم سمعتم مئات مثلها . وعلى كل حال لا بأس من أن نسمع بقيتها بعد حين .. والآن .. هلموا الى الغرفة الاخرى للشراب ..

وتسابق الجميع في الاسراع الى غرفة الشراب ، مبتعدين عن ايليا ، غير مستعدين للانصات له لأن مضيفتهم لا تريد الانصات اليه . وقد أثار هذا التصرف انفعالات ايليا ، فقال بصوت مرتفع موجها الحديث اليهم جميعا :

ـ هل يمكنكم أن تصدقوا أن الناس الذين حاكموا هذه الفتاة كانوا جميعا من عملائها ! انني أعرف بعضهم .. أعرف أنهم أسوأ من اللصوص .

فقال ترافيل بصوت حاسم وهو يرفع يده :

ـ لا لا .. انهم جماعة المحلفين .. وقد كنت أنا نفسي

فقاطعه ايليا قائلا :

ـ نعم .. نعم .. انهم جماعة المحلفين .. ولست أدرى كيف يمكن ان يحكموا على الناس وهم أنفسهم . . .

فهتف به ترافيل قائلا بحدة :

ـ كفى لغوا .. ان نظام المحلفين من التشريعات القانونية التى صدرت فى عهد صاحب الجلالة اسكندر الثانى للصالح العام . فمن أنت حتى تجرح هذا النظام

ثم تقدم متحديا ايليا .. وتحلق المدعوون حول الاثنين وقد توقعوا أن يتشابكا فى معركة مثيرة . وجذبت تاتيانا كم أحدهم فى اهتياج وقالت متوسلة :

ـ أرجوكم .. لا داعى للعراك .. هلم الى غرفة الشراب

وقال كيريك وهو يحاول أن يفض النزاع بضحكة عالية :

ـ هلم أيها الاصدقاء .. ليس هذا وقت المناقشة فى الفلسفة .

وصاح ترافيل متحديا وقد استبدت به الرغبة للنزاع :

ـ هذه ليست فلسفة ، وانما سياسة . والذين يتفوهون بهذه العبارات ليسوا مواطنين صالحين .. انهم من الفئات الخطرة على المجتمع ..

ورغم اشتعال ايليا بالغضب ، فقد استطاع أن يسيطر على صوته وأن يقول بهدوء قاتل :

ـ يمكنك أن تدعونى ما شئت . فأنت رجل مثقف كما يقال .. ولكنك لن تستطيع أن ترغمنى على سحب أقوالى .. ان ذوى البطون الممتلئة لا يفهمون الجائعين . وقد يكون الجائعون لصوصا .. ولكن المتخمين لصوص أيضا ..

واستدار ترافيل نحو كيريك وقال له :

ـ كيريك نيكوديموفيتش .. ان هذه اهانة لا يمكن السكوت عليها ..

ولكن تانيانا أمسكت بذراعه وراحت تجذبه الى غرفة الطعام قائلة بصوت كله الاغراء :

ـ تعال الى شطائرك المحبوبة .. شطائر الرنجة والسمك والبيض واللحم المشوى ..

فلعق ترافيل شفتيه وقال وهو يسير مع تانيانا :

ـ اننى أعرف أمثالة

وقالت زوجته وهى ترسل الى ايليا نظرة احتقار :

ـ لا داعى لأن تعكر دمك للاشىء يا أنطون •

واستطردت تانيانا تقول بلهجة اغراء متزايدة :

ـ وشرائح خيار مخلل وطماطم محشوة و . . .

وفجأة توقف ترافيل واستدار قائلا لايليا بلهجة الرجل المجرب الناصح :

ـ هذا تهور خطير منك أيها الشاب .. يجب أن تقدر الظروف .. يجب أن تفهم •

فقال ايليا بنفس الهدوء الذى يسبق العاصفة :

ـ هذه هى مشكلتى .. اننى لا أفهم .. لا أفهم مثلا لماذا يرتفع شأن رجل مثل بتروشكا الخمار !

وسار الضيوف نحو غرفة الشراب محاولين أن يبتعدوا عنه • وأقبل عليه كيريك وقال غاضبا :

ـ انك شاب عنيد غبى .. ما معنى هذا الجدل ؟

وجفل ايليا فجأة .. وأظلم كل شىء أمام عينيه كأنما ضربه أحد بقوة على رأسه ، وجمع قبضتى يديه وهجم على كيريك .. ولكن هذا كان قد استدار وسار ـ دون أن يشعر شىء ـ الى غرفة الشراب

وتنهد ايليا بعمق ، وراح ينظر من مكانه عندالبابه الى ظهور الجميع وهم مقبلون بشراهة على الطعام والشراب ، وقد امتلأت الغرفة بمصمصة شفاههم وهمهمة ابتلاعهم للاكل والخمر •

وقال ترافيل وهو يحشو فمه :

ـ ما أشهى هذا الطبق يا سيدتى .. انه رائع •

فقالت له تانيانا بصوت عذب :

ـ هل تحب أن أضيف اليه بعض الفلفل ؟

وقال ايليا لنفسه في حقد :

« أنا الذى ساحشو أفواهكم بالفلفل » .

ثم رفع رأسه وتقدم بخطوات ثابتة الى الغرفة ، واختطف كأس الخمر من أحد المدعوين ورفعها عاليا أمام تانيانا وقال - في صحتك أيتها الصديقة القديمة !!

وهبطت هذه العبارة على الجميع كأنها الصاعقة .. أو كأنها يد خفية حطمت كل شيء وأغرقت المسكن في ظلام دامس جعل كل واحد من المدعوين يتسمر في مكانه لا يريم . وكانت الافواه المفتوحة ببقايا الطعام تبدو بشعة المنظر في الوجوه الخائفة .. المترقبة .

وعاد ايليا يقول :

- هلم يا كيريك .. اشرب معى كأسا .. واطلب من عشيقتي ، زوجتك ، أن تشاركنا الشراب . ماذا بك ؟ لماذا تحاول دائما أن نقوم بأعمالنا القذرة في الخفاء ؟ لنخرج الى الضوء .. هذه هي الحقيقة التي قررت أن أواجهها .

وارتفع صوت تانيانا صارخا :

- أيها الحيوان ؟

ورأى ايليا ذراعها وهي ترتفع لتقذف بصحن خزفي الى رأسه . واستطاع أن يتجنب القذيفة في اللحظة المناسبة ، وسقط الصحن في دوى ضاعف من توتر أعصاب الضيوف .

وتراجع الجميع ببطء عن المائدة ، تاركين تانيانا وزوجها لمواجهة الموقف . وكان كيريك واقفا ممسكا بسمكة من ذيلها ، محملقا في وجه ايليا ببلاهة ، بينما كانت تانيانا ترتعد بعنف وتهز قبضتها في وجه ايليا . وكان وجهها شديد الاحمرار حتى صار في لون ثوبها ، وكانت الكلمات تخرج من فمها ثقيلة متعثرة :

- أنك كاذب .. كاذب .. حقير ..

فرد ايليا قائلا بهدوء :

- هل أذكر لهم الحقيقة ؟ هل أصف جسدك عاريا ؟ هل أحدد العلامات الموجودة على جسدك والتي لا يمكن أن يراها الا زوج أو عشيق !

وسرت في الغرفة ضحكات مكتومة . ولكن تانيانا رفعت يديها ،

وأمسكت بعنقها كأنما تخشى أن تختنق ثم تهالكت في شبه اغمـــاء على أقرب مقعد اليها

وقال أحدهم :

ــ يجب استدعاء رجال الشرطة .

ولكن كيريك تجاهله ، ثم تقدم نحو ايليا كالثور الهائج .. ولكن ايليا أزاحه ببساطة عن طريقه قائلا :

ــ الى أين أنت ذاهب . ؟ لا تفقد عقلك ، فلو أنني ضربتك لقضيت عليك في لحظة . ولكن اسمع .. انك لم تتعود أن تسمع الحقيقـة دائما ..

ولكن كيريك استأنف الهجوم مرة أخرى ، وكتم الجميع أنفاسهم وفرك ترافيل يديه وهو يتوقع أن يرى ايليا طريحـــا على الارض . ولكن ايليا أزاح كيريك مرة أخرى عن طريقه وقال :

ــ انني لا أريد أن أوذيك .. انك غبي أحمق مغمض العينين .. ولكنك لم تؤذني يوما .. ابتعد عني .

ثم دفعه مرة ثالثة بمزيد من القوة جعلت كيريك يصطدم بالجدار المقابل ، واستدار ايليا الى المدعوين وقال لهم :

ــ ان زوجته تانيانا فرضت نفسها على .. أرغمتني على أن اتجاوب مع رغباتها ، انها سيدة ذكية ، ولكنها أحقر من الحقارة ذاتها ..

لقد امضيت يومي في المحكمة وعرفت كيف أحكم على غيري من الناس

وأراد أن يقول أشياء كثيرة ، الا أن الافـــكار كانت متزاحمة في رأسه ، ومن ثم راح يبذل جهده لتنسيقها .. وأخيرا قال :

ــ انها ليست تانيانا التي أردت أن أكشف حقيقتها .. لقد حدث هذا عرضا .. وانما أردت في الواقع أن أكشف لكم عن حقـــائق كثيرة أخرى .. منها على سبيل المثال أني قتلت رجلا بمحض المصادفة . لم أكن أريد أن أقتل هذا اطلاقا .. ولكنني فعلته .. قتلت رجـلا دون أن أشعر .. وأنا الآن مشترك في التجارة مع تانيانا بمال هذا الرجل القتيل .

وصاح كيريك سعيدا :

ــ انه مجنون .. مجنون ..

ثم راح ينتقل من ضيف الى اخر وهو يهتف قائلا :

ـ أرأيتم .. انه مجنون .. مجنون .. مسكين ايليا .. مسكين !

وانفجر ايليا ضاحكا وقد شعر بالراحة بعد أن اعترف بجريمته شعر كأن الارض قد تلاشت تحت قدميه وأصبح معلقا فى الهواء .. خفيفا طائرا .. يرتفع ويرتفع الى مالا نهاية ..

ونظرت تاتيانا الى وجه ايليا المضطرب والى عينيه المحملقتين ، ثم قالت للواقفة بجانبها :

ـ كنت ألاحظ منذ مدة طويلة أنه مجنون .. أنظرى الى وجهه .. أنظرى الى عينيه ! يا للهول ! ..

وقالت مدعوة أخرى وهى ترنو الى ايليا فى خوف :

ـ اذا كان قد جن فيجب استدعاء رجال الشرطة .

وعاد كيريك يهتف سعيدا :

ـ انه مجنون .. مجنون .. أرأيتم ؟!

وقال المدعو كريزلوف وهو يتلفت حوله فى حذر :

ـ من يدرى .. ربما عمد الى قتلنا جميعا .

وتسمر المدعوون فى أماكنهم عاجزين عن الحركة . وكان ايليا واقفا بجوار الباب . ومن ثم لم يكن فى مقدور أحد أن يخرج دون أن يمر به . وكان لا يكف عن الضحك ، اذ امتلأت نفسه ابتهاجا وهو يرى هؤلاء المدعوين ينظرون اليه بخوف وترقب . وكذلك لاحظ انهم لم يكونوا آسفين حين انهال بالإهانات على تاتيانا وزوجها ولعلهم تمنوا لو ظل يصب هذه الاهانات على رأسيهما طوال الليل .. الا أن الخوف منه خنق هذه الامنية فى صدورهم .

وزوى ما بين حاجبيه متحفزا وقال :

ـ اننى لست مجنونا . ها . لا يتحرك أحدكم . اننى لن أسمح لكم بالخروج من هنا . الان على الاقل . واذا حاول أحدكم أن يخالفنى فسوف أقتله . اننى قوى ..

ثم رفع ذراعه المفتولة العضلات فى الهواء ، وعاد يقول :

ـ والان اخبرونى . اى نوع من المخلوقات انتم ؟ ! اية فائدة فيكم ايها الغرباء التعساء ! ايها الذئاب . نعم . انكم مجموعة من الذئاب

وصاح كيريك غاضبا :

ـ اخرس !

ـ بل انت الذى ستخرس . لسوف اصارحكم برايي فيكم . انني لا املك نفسي عن التعجب ولنا انظر اليكم . ان كل همكم فى الحياة ان تحشوا بطونكم بالطعام والشراب ، وان يخدع بعضكم البعض دون ان يشعر احدكم بعاطفة حقيقية نحو غيره . ماذا تريدون ؟ والى اى هدف تسمون ؟ لقد حاولت أن أعيش نظيفا مستقرا محترما . ولكننى لم أجد شيئا من هذا فى أى مكان . وكل ما حصلت عليه انى افسدت حياتى كلها . ان الانسان المحترم ليس له مكان بينكم . انكم تدفعونه دفعا الى الجريمة او الى القبر ـ انظروا الى ! انني شاب وقوى . ومع ذلك فانا بينكم عاجز مثل القط الذى أطلق على عدد من الجرذان فى كرار مظلم . انكم أنتم الحكام ، وانتم الخصوم ، وانتم الذين تضعون القانون . ولكنكم فى نفس الوقت مجموعة من اللصوص والخونة والانتهازيين .

وفى تلك اللحظة وثب الموظف بادارة البرق واندفع مارقا من الباب قبل أن يمنعه ايليا الذى ضحك قائلا :

ـ آه . لقد فر احد الجرذان .. عليه اللعنة ! ..

وصاح المدعو الهارب وهو فى طريقه الى الشارع :

ـ انني ذاهب لاستدعاء رجال الشرطة

ورد عليه ايليا قائلا :

ـ اذهب . ان هذا لم يعد يهمنى

وسارت تانيانا خارجة من الغرفة وكانها تمشى فى نومها . واوما ايليا برأسه نحوها وقال ساخرا :

ـ لقد وجهت اليها ضربة قاضية . ان هذا اقل ما تستحق . هذه الافعى ! وصاح كيريك الذى كان متحنيا فى ركن الغرفة يبحث عن شيء فى درج خزانة الملابس :

ـ امسك لسانك ايها القاتل المجنون

وجلس ايليا وعقد ذراعيه على صدره وقال :

ـ لماذا تصيح ايها المأفون المخدوع ؟ ! انني اقسم لك انني كنت عشيقا لها . تحت انفك . ايها الابله . واقسم ايضا انني قتلت ذلك المرابي بولكتوف ؟ اتذكر كيف كنت اسالك كثيرا عنه ؟ كنت اسالك

عنه لانني قاتلة ! واقسم ايضا انني اشتركت مع زوجتك في التجارة بالمال الذي سرقته منه

وتلفت ايليا الى الوجوه الخائفة ، وشعر بالغضب من نفسه لانه اعترف بجريمته أمام هؤلاء البلهاء الخائفين . وعاد يقول :

ـ أتحسبون انني اعترف بجريمتي لانني نادم عليها ؟! لا . لا . وانما لاضحك من منظركم . هذه هي الحقيقة

ووثب كيريك اخيرا وقد امسك بمسدس ضخم مصوب الفوهة الى ايليا وقال محذرا :

ـ انك لن تستطيع الهرب الان . اذن فانت قاتل المرابي العجوز بوالكتوف ؟

وشهقت النساء . ونهض ترافيل قائلا :

ـ ايها السادة . دعوني أخرج . لا شأن لي بهذه المنازعات الخاصة

ولكن كيريك لم يحفل به ، وانما تقدم متحفزا من ايليا وهو يصيح مغضبا :

ـ لسوف تحاكم . لسوف تنفى مدى الحياة للعمل الشاق في مجاهل سيبريا

ونظر ايليا اليه في استخفاف وقال :

ـ لا أعتقد ان مسدسك هذا محشو بالرصاص . ثم لماذا أنت مهتاج الى هذا الحد ؟ . انني لا افكر في الهرب . واذا كان النفي هو مصيري ، فليكن . فانه لن يكون أسوأ مما انا فيه الان

وارتفعت همسات زوجة ترافيل وهي تقول :

ـ أنطون . انطون . هلم نخرج

ـ يبدو اننا لن نستطيع يا عزيزتي

ولكنها أمسكت بذراعه ، وسارت به عبر الباب الى الغرفة الاخرى التي كانت تانيانا جالسة فيها تنتحب

وشعر ايليا فجأة بفراغ هائل في داخله . فراغ مظلم بارد يتردد فيه ـ كالصدى ـ هذا السؤال :

« ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ »

وبصوت هادىء مسموع ، قال :

ـ وهذه هي النهاية

وصاح كيريك قائلا :

ــ لا تحاول أن تثير عطفنا عليك .

ــ انني لا أحاول هذا . عليك اللعنة . انني أفضل ان اثير عطف كلب ضال على اثارة عطفكم انتم ! انني أتمنى لو استطعت ان اقضي عليكم جميعا . ابتعد عن طريقي يا كيريك . انني لا أطيق النظر اليك !

وأخذ المدعوون ــ الواحد بعد الاخر ــ يتسللون خارجين من الغرفة وهم يرسلون الى ايليا نظرات خوف مختلسة . اما هو ، فقد كانوا في نظره مجرد بقع سوداء لا تثير في نفسه اية مشاعر او تحرك في رأسه اية افكار ذلك انه كان يشعر بالفراغ في داخله يتسع ويمتد ويشمله كله . وظل جالسا برهة ينصت الى كيريك . واخيرا ضحك وقال :

ــ هلم نتصارع ياكيريك

فصرخ كيريك قائلا :

ــ سوف اطلق الرصاص على رأسك

وضحك ايليا مرة اخرى وقال :

ــ ان مسدسك فارغ

ثم اضاف قائلا :

ــ انني واثق اني سأغلبك في المصارعة

وارسل نظرة عابرة الى المدعوين الباقين في الغرفة وقال دون ان يرفع من طبقة صوته :

ــ لشد ما أتمنى ان اعرف اين هي القوة التي يمكن أن تمسحكم جميعا عن وجه الارض

ولزم الصمت التام بعد ذلك ، وظل جالسا لا يريم ..

وبعد مدة وجيزة ، اقبل اثنان من رجال الشرطة يتقدمهما ضابط ومن ورائهما ظهرت تانيانا لازينا تقول وهي تشير الى ايليا :

ــ لقد اعترف امامنا جميعا . انه قتل بولكتوف . المرابي . هل تذكرون الحادثة .. ؟

ورد الضابط قائلا بسرعة :

ــ هل يمكن اثبات هذا ؟

فقال ايليا بهدوء :

ــ لماذا لا ؟ ؟ انني أستطيع اثبات هذه الحقيقة

وجلس الضابط الى المائدة وراح يكتب اعترافات ايليا الذى وقف رجلا الشرطة وراءه . ونظر ايليا اليهما ، وتنهد بعمق ، ثم اطرق برأسه .

وفوجيء الجميع بكيريك يلقى بالمسدس جانبا ويقول لضابط الشرطة :

ــ سافليف . اضربه ضربا مبرحا ثم اطلق سراحه . انه مخبول فقط ..

فنظر سافليف برهة الى كيريك ، وبعد ان فكر مليا ، قال :

ــ لا استطيع ان أفعل هذا بعد أن اعترف بنفسه أمامى

وتنهد كيريك وقال :

ــ يا للمسكين !!

وقال ايليا ساخرا :

ــ يا لقلبك الرقيق ياكيريك نيكوديموفيتش ؟ ! ان هناك كلابا مثلك! اذا ضربتها جاءت تتمسح فيك . ولكن لعلك لاتأسف من أجلى ، وانما خوفا من ان افضح زوجتك أثناء المحاكمة . لا تخف . لن اقول منهما شيئا . انني اشعر بالعار من مجرد ذكر اسمها

واسرع كيريك الى الغرفة الاخرى وتهالك جالسا

وقال الضابط لايليا :

ــ اقرا هذه الاعترافات ثم وقع عليها باسمك كاملا

ووقع ايليا على الاوراق دون أن يقرأها . ولما رفع رأسه ، راى الضابط ينظر اليه فى دهشة وتساؤل ثم يقول له :

ــ هل ضميرك هو الذى دفعك الى الاعتراف ؟

فقال ايليا بلهجة حاسمة :

ــ اننى بلا ضمير

وساد الصمت برهة ، ثم اذا كيريك يقول فى الغرفة الاخرى

ــ انه مجنون . مجنون بلا ادنى شك

وهز الضابط كتفيه وقال لايليا :

ــ هلم معى ..

ثم رمقه بنظرة فاحصة وقال :

ــ اننى لا اريد أن اضع القيود فى يديك . ولكن عدنى الا تحاول الهرب ..

وقال ايليا في صوت كله اليأس :

ــ الى اين أهرب !!

ــ اذن اقسم بأعز شيء عليك

فارسل ايليا ضحكة قصيرة وقال :

ــ وهل لمثلي مايعتز به في هذه الدنيا ؟

وحرك الضابط يديه في يأس وقال :

ــ حسنا . هلم

وما ان خرج ايليا الى ظلمة الليل ورطوبة الجو حتى تنهد بعمق ، ثم رفع راسه الى السماء فاذا هي خفيضة سوداء وكأنها سقف مثقل بالهباب الغرفة صغيرة خانقة

وقال الضابط بلهجة آمرة :

ــ تقدم ..

وسار في الطريق . وكانت البيوت على الجانبين تبدو وكأنها مرتفعات صخرية هائلة . وتناثر الطين تحت قدميه ، واخذ الطريق ينحدر الى مزيد من الظلام المتكاثف وتعثر ايليا في صخرة ، وكاد أن يقع ، ولكن سؤالا واحدا كان يتردد في فضاء نفسه بلا توقف :

ــ ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ هل سيكون بتروشكا بين المطفين ؟!

وتحول السؤال الى صورة كان قد رآها في الصباح . صورة القاضي وهو يصدر الحكم كأنه يتحدث عن موضوع عادي ، ووجه بتروشكا الخمار المربد ! وشعر بألم في أصابع قدمه التي تعثرت ، وخفف من سيره بعض الشيء . وفي أذنيه كان يسمع صدى الاحاديث في المحكمة . وصوت رجل يقول مشيرا الى القضاة والمطفين « انهم يحسنون وزن الامور ، لانهم لا يعانون من سوء التغذية »

ثم عاد مرة اخرى يسمع صوت القاضي وهو يصدر الحكم بهدوء الانسان الذي يتحدث في موضوع عادي :

ــ هل تحترفين ..

ثم صوت المدعي العام وهو يهدر في وجه فيرا :

ــ منذ متى وانت تحترفين هذه المهنة ؟ ؟

ورأى ايليا وجه بتروشكا المقطب . المريب . واختلاج شفتيه . واحس بألم رهيب لا يوصف يستبد به وكان ثمة سكينا يمزق جسده ، واذا هو ، من فرط هذا الالم ، يثب الى الامام ، ثم يجري

بكل قوته فوق الشارع المرصوف بالبلاط . وصفرت الريح في اذنيه ، وتلاحقت أنفاسه اللاهثة ، واخذ يطوح بذراعيه ، كالمجدافين ، ليدفع بهما جسمه الى الامام . الى الظلام . ومن ورائه كان يسمع دقدقة أقدام رجال الشرطة المنطلقين خلفه . ثم صوت صفارة مرتفعا ،وصوت رجل يقول :

ــ امسكوا به . امسكوا به . بالقاتل

وخيل الى ايليا ان كل شيء حوله . والجدران ... والبيوت ... والطريق والمصابيح المطفأة كلها تدور وتدور وتوشك ان تطبق عليه . ولكنه ظل مندفعا الى الامام بكل قواه . غير حافل بالتعب ، لايهمه شيء الا ان يبتعد عن وجه بتروشكا الخمار .. وفجأة ارتفع امامه شيء مسطح رمادي . وتذكر ان الطريق ينعطف يمينا المرة بعد الاخرى حتى ينتهي الى الطريق العام المزدحم بالناس

ومعنى هذا انه سيقع في قبضتهم

وصاح بكل قواه وهو يندفع الى الامام :

ــ هلم الحقوا بي وامسكوني !؟

وفي تلك اللحظة رأى ذلك الشيء الرمادى المسطح المرتفع أمامه ، وكان جدارا في الظلام

وارتفع في الجو صوت ارتطام يشبه ارتطام الامواج حين تتكسر على الصخور في بهيم الليل .

صوت ارتطام سريع . ثم سكون تام

ووصل الى الجدار شخصان آخران . وانحنيا على الجسد الملقى بجواره . ولحق بهما أشخاص اخرون في ادنى التـــــــل . وارتفعت الاصوات بهذا التساؤل :

وأشعل أحدهم عود ثقاب ، ونظر الجسد الملقى ، ثم هتف :

ــ عجبا ، لقد انكسرت رأسه الى نصفين ؟ .

وقال آخر :

ــ يا للمسكين ! .

ورسم ثالث علامة الصليب على صدره وهمهم قائلا :

ــ عسى ان يرحمه الله !

تمت

سلسلة روايات الهلال

مجلة قصصية شهرية تصدر عن دار الهلال

بدأت حياتها فى يناير سنة ١٩٤٩ باصدار الروايات الخالدة التى وضعها المرحوم جرجى زيدان عن تاريخ الاسلام ولقيت فى عهده انتشارا كبيرا ...
ثم واصلت جهودها فى خدمة الادب القصصى الرفيع بتقديم منتخبات من روائع القصص العالمى ...

فهل تنقص مجموعتك احدى هذه الروايات ؟ ...

روايات تاريخ الاسلام لجرجى زيدان

١ - فتح الاندلس
وصف اسبانيا وفتح العرب لها
٢ - صلاح الدين ومكايد الحشاشين
قصة قيام الدولة الايوبية وحياة مؤسسها
٣ - شجرة الدر
قصة مبايعة اول ملكة فى الاسلام بمصر
٤ - ارمانوسة المصرية
قصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص
٥ - عذراء قريش
قصة مقتل الخليفة عثمان بن عفان
٦ - ١٧ رمضان
قصة مقتل الامام على وفتنة الخوارج
٧ - غادة كربلاء
قصة مقتل الامام الحسين وآل البيت
٨ - الحجاج بن يوسف
قصة مقتل عبدالله بن الزبير بعد حصار مكة
٩ - شارل وعبدالرحمن
قصة فتوحات العرب فى فرنسا
١٠ - ابومسلم الخراسانى
قصة قيام الدولة العباسية فى بغداد
١١ - العباسة اخت الرشيد
قصة نكبة البرامكة فى عهد الرشيد
١٢ - الامين والمأمون
قصة انتقال الخلافة من الامين لاخيه المأمون
١٣ - عروس فرغانة
قصة الدولة العباسية فى عهد المعتصم .
١٤ - احمد بن طولون
قصة استقلال مصر فى عهد أحمد بن طولون
١٥ - عبدالرحمن الناصر
قصة العصر الذهبى للعرب فى الاندلس
١٦ - فتاة القيروان
قصة فتح الفاطميين لمصر على يد القائد جوهر

١٧ و ١٨ ـ فتاة غسان « جزءان »
قصة ظهور الاسلام وفتوحاته الاولى
١٩ ـ الانقلاب العثماني
وصف حالة تركيا في عهد عبدالحميد
٢٠ ـ أسير المتمهدي
قصة ثورة عرابي بمصر والمهدي بالسودان

٢١ ـ استبداد المماليك
قصة الحرب بين روسيا وتركيا
٢٢ ـ المملوك الشارد
وصف مصر وسوريا في القرن الماضي
٢٣ ـ جهاد المحبين
قصة انتصار الحب الصادق برغم كل العقبات

.. ومن روائع القصص

٢٤ ـ غرام نابليون في مصر
تأليف روجيه رجيس
٢٥ ـ غرام عطيل
تأليف : اميل لودفيغ
٢٦ ـ وصول القيصر
تأليف جول فيرن
٢٧ ـ غادة طيبة
تأليف أجاثا كريستي
٢٨ ـ روميو وجولييت
تأليف بول ريبو
٢٩ ـ غادة الكاميليا
تأليف مرسيل خوزيت
٣٠ ـ انا كارنينا
تأليف ليو تولستوي
٣١ ـ الزنبقة السوداء
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٣٢ ـ اغلال الحب
تأليف سومرست موم
٣٣ ـ قلوب تحترق
تأليف ستيفان زفايج
٣٤ ـ غلالة الرعب
تأليف ادجار والاس
٣٥ ـ ذات الرداء الابيض
تأليف ويلكي كولنز
٣٦ ـ الكونت دي مونت كريستو
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٣٧ ـ البعث
تأليف ليو تولستوي
٣٩ و ٤٠ ـ ذوالقناع الحديدي «جزءان»
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٤١ ـ ابنة البخيل
تأليف اونوريه دي بلزاك
٤٢ ـ مأساة مايرلنغ
تأليف بول ريبو

٤٣ ـ الارض الطيبة
تأليف بيرل بك
٤٤ ـ غراميات راسبوتين
تأليف شارل بني
٤٥ ـ جريمة في الريف
تأليف أجاثا كريستي
٤٦ ـ ماري انطوانيت
تأليف ستيفان زفايج
٤٧ ـ الفارس الخامس
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٤٨ ـ الاب الخالد
تأليف اونوريه دي بلزاك
٤٩ ـ مغامرات مستر بيكويك
تأليف شارلز ديكنز
٥٠ ـ كاتالينا
تأليف سومرست موم
٥١و٥٢ ـ الفرسان الثلاثة « جزءان »
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٥٣ ـ زهرة الحب
تأليف اونوريه دي بلزاك
٥٤ ـ الشقراء البريئة
تأليف ايرل ستانلي جاردنر
٥٥ ـ شعب وطاغية
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٥٦ ـ الغانية اللعوب
تأليف ايفان تورجنيف
٥٧ ـ صراع الحب
تأليف فيودور دستويفسكي
٥٨ ـ في مهب الريح
تأليف لين يوتنج
٥٩ ـ اوليفر تويست
تأليف شارلز ديكنز
٦٠ ـ الثورة الحمراء
تأليف اسكندر دوماس الكبير

٦١ ـ جريمة في وادي النيل
تأليف أجاثا كريستي
٦٢ ـ قلبان في عاصفة
تأليف روفائيل سباتيني
٦٣ ـ أحدب نوتردام
تأليف فيكتور هيجو
٦٤ ـ الشبح الرهيب
تأليف أجاثا كريستي
٦٥ ـ الحب في الملعب
تأليف ابيه بريفو
٦٦ ـ العاشق الفارس
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٦٧ ـ البنفسجة الحسناء
تأليف اسكندر دوماس الكبير
٦٨ ـ العاشقة العذراء
تأليف ايفان تورجنيف
٦٩ ـ دافيد كوبرفيلد
تأليف شارلز ديكنز
٧٠ ـ عاصفة وقلب
تأليف فيكتور هيجو
٧١ ـ ذات الشعر الذهبي
تأليف سومرست موم
٧٢ ـ الوحش الرهيب
تأليف ادجار والاس
٧٣ ـ العاشق المجنون
تأليف اميل زولا
٧٤ ـ جوهرة القمر
تأليف ويلكي كولنز
٧٥ ـ السجين الهارب
تأليف ادجار والاس
٧٦ ـ غانية باريس
تأليف أميل زولا
٧٧ ـ جنون الصبا
تأليف سومرست موم
٧٨ ـ الخيط الدموي
تأليف كونان دويل
٧٩ ـ صراع بين الاجيال
تأليف ايفان تورجنيف
٨٠ ـ الكلب الجهنمي
تأليف كونان دويل
٨١ ـ المرابية العجوز
تأليف فيودور دستويفسكي
٨٢ ـ قلب محطم
تأليف جي دي موباسان
٨٣ ـ الألق الضائع
تأليف جيمس هيلتون

٨٤ ـ مرتفعات ويذرنج
تأليف اميلي برونتي
٨٥ ـ مغامرات شرلوك هولمز
تأليف كونان دويل
٨٦ ـ الزوج الخالد
تأليف فيودور دستويفسكي
٨٧ ـ الارض العذراء
تأليف ايفان تورجنيف
٨٨ ـ رجال الله
تأليف بيرل بك
٨٩ ـ مذكرات شرلوك هولمز
تأليف كونان دويل
٩٠ ـ قلب المرأة
تأليف سومرست موم
٩١ ـ امرأة في الثلاثين
تأليف أونوريه دي بلزاك
٩٢ ـ الكنز المفقود
تأليف كونان دويل
٩٣ ـ ابن مصر
تأليف جيمس يسبي الصغير
٩٤ ـ اعلان عن جريمة
تأليف أجاثا كريستي
٩٥ ـ الحب العقيم
تأليف ايفان تورجنيف
٩٦ ـ الكأس الاخيرة
تأليف اجاثا كريستي
٩٧ ـ وادي الرعب
تأليف كونان دويل
٩٨ ـ بنت مصر
تأليف مارجري لورنس
٩٩ ـ ابنة القائد
تأليف اسكندر بوشكين
١٠٠ ـ الحرب والسلام
تأليف ليو تولستوي
١٠١ ـ عنترة بن شداد ـ الجزء الأول
تأليف يوسف بن اسماعيل
١٠٢ ـ نهاية غرام
تأليف جراهام جرين
١٠٣ ـ عنترة بن شداد ـ الجزء الثاني
تأليف يوسف بن اسماعيل
١٠٤ ـ خاتم سليمان
تأليف اونوريه دي بلزاك
١٠٥ ـ عنترة بن شداد ـ الجزء الثالث
تأليف يوسف بن اسماعيل
١٠٦ ـ الجوهرة الخضراء
تأليف ادجار والاس

١٠٧ ـ خفايا باريس
تأليف سومرست موم
١٠٨ ـ الرجل الثالث
تأليف جراهام جرين
١٠٩ ـ مغامرة فوق القمر
تأليف هربرت ج. ويلز
١١٠ ـ عدالة السماء
تأليف أجاثا كريستي
١١١ ـ غراميات أهل الفن
تأليف برنارد شو
١١٢ ـ جريمة على الشاطئ
تأليف جراهام جرين
١١٣ ـ أميرة الريح
تأليف ادجار رايس بوروز
١١٤ ـ المليون الضائع
تأليف ادجار والاس
١١٥ ـ قلب الفنانة
تأليف سومرست موم
١١٦ ـ ملكة المزيفين
تأليف ادجار والاس
١١٧ ـ فتش عن المرأة
تأليف أجاثا كريستي
١١٨ ـ جزيرة الأحلام
تأليف سومرست موم
١١٩ ـ العالم المفقود
تأليف كونان دويل
١٢٠ ـ ظلال الخطيئة
تأليف جورج سيمنون
١٢١ ـ الثعبان الطائر
تأليف ادجار والاس
١٢٢ ـ الصراع البحري
تأليف بلاسكو ايبانيز
١٢٣ ـ الشعوب السري
تأليف جراهام جرين
١٢٤ ـ جريمة في القصر
تأليف أجاثا كريستي
١٢٥ ـ اليد المجهولة
تأليف جورج سيمنون
١٢٦ ـ مدينة الذهب
تأليف رايدر هجارد
١٢٧ ـ جريمة في الضباب
تأليف تشارلز اريك مين
١٢٨ ـ لغز المفتاح الخفي
تأليف ادجار والاس
١٢٩ ـ معبد الحب
تأليف أجاثا كريستي

١٣٠ ـ هذه المرأة لي
تأليف جورج سيمنون
١٣١ ـ ايفانهو أو الفارس الأسود
تأليف سير والتر سكوت
١٣٢ ـ حسناء القوقاز
تأليف ليو تولستوي
١٣٣ ـ الساحر الجبار
تأليف سومرست موم
١٣٤ ـ الرجل الغامض
تأليف أجاثا كريستي
١٣٥ ـ أشباح الرعب
تأليف ادجار والاس
١٣٦ ـ الخطيئة السابعة
تأليف سومرست موم
١٣٧ ـ الحكم الرهيب
تأليف ادجار والاس
١٣٨ ـ ساحرة الرجال
تأليف جون شتاينبك
١٣٩ ـ الجوهرة الدامية
تأليف رايدر هجارد
١٤٠ ـ كنت جاسوسة
تأليف سومرست موم
١٤١ ـ عذراء وثلاثة رجال
تأليف جيمس هيلتون
١٤٢ ـ اللغز العجيب
تأليف أجاثا كريستي
١٤٣ ـ المنتقم
تأليف ادجار والاس
١٤٤ ـ رجال ونساء وحب
تأليف جون شتاينبك
١٤٥ ـ ليلة غرام
تأليف سومرست موم
١٤٦ ـ مغامرات في عصر الفضاء
تأليف روبرت شيكلي
١٤٧ ـ الفتاة الفارس
تأليف د. س. ديتريش
١٤٨ ـ زواج حرب
تأليف هنري بوردو
١٤٩ ـ جريمة في المونفو
تأليف جورج سيمنون
١٥٠ ـ المليوني العجيب
تأليف ادجار والاس
١٥١ ـ العاشق الظريف
تأليف ارنولد بنيت
١٥٢ ـ تيريزا
تأليف اميل زولا

١٥٣ – النيران والجسد
تأليف جورج ارنو
١٥٤ – العربون
تأليف ارنست همنجواى
١٥٥ – قلة اليابان
تأليف بيرل بك
١٥٦ – القاتل الخفى
تأليف أجاثا كريستى
١٥٧ – صقر البحر
تأليف رافائيل ساباتينى
١٥٨و١٥٩ – صفحة حب « جزءان »
تأليف أميل زولا
١٦٠ – التمردة المسنة
تأليف بيرل بك
١٦١ – كاتيا
تأليف ليو تولستوى
١٦٢ – ابتسامة حب
تأليف فرانسواز ساجان
١٦٣ – جريمة فى الريفييرا
تأليف جورج سيمنون
١٦٤ – سوف تشرق الشمس
تأليف أرنست همنجواى
١٦٥ – غريزة السعادة
تأليف أندريه موروا
١٦٦ – الفريسة
تأليف أميل زولا
١٦٧ – مادلين
تأليف جول ساندو
١٦٨ – ٢٤ ساعة فى حياة امرأة
وجنون الحب
تأليف ستيفان زفايج
١٦٩و١٧٠ – جين اير « جزءان »
تأليف شارلوت برونتى
١٧١ – ألوان من الحب
تأليف أندريه موروا
١٧٢ – نيتوتشكا اليتيمة المسنة
تأليف دستويفسكى
١٧٣ – السمراء الهاربة
تأليف ستانلى جاردنر
١٧٤ – عذارى الصيد
تأليف بيرل بك
١٧٥و١٧٦ – سيف بن ذى يزن « جزءان »
تأليف فاروق خورشيد
١٧٧ – ينابيع الحب
تأليف تورجنيف
١٧٨ – شهوة الحياة
تأليف أميل زولا
١٧٩ – جريمة فى النادى
تأليف ادجار والاس
١٨٠ – الحب والخطيئة
تأليف هنرى بوردو
١٨١و١٨٢ – ذهب مع الريح « جزءان »
تأليف مارجريت ميتشل
١٨٣ – مصرع الورد
تأليف أجاثا كريستى
١٨٤ – الرهان العجيب
تأليف جول فيرن
١٨٥ – الجاسوسة الحسناء
تأليف مونيك سان سرفان
١٨٦و١٨٧ – قصة مدينتين « جزءان »
تأليف تشارلز ديكنز
١٨٨ – حصاد الحب
تأليف أميل زولا
١٨٩ – العذراء المتشردة
تأليف ايرل ستانلى جاردنر
١٩٠ – حورية الاطلنطى
تأليف بيير بنوا
١٩١و١٩٢ – مغامرات سيف بن ذى
يزن « جزءان »
تأليف فاروق خورشيد
١٩٣ – ورد الخريف
تأليف أندريه موروا
١٩٤ – الحلم الكاذب
تأليف فيودور دستويفسكى
١٩٥ – الحرام
تأليف يوسف ادريس
١٩٦ – التخمة
تأليف أميل زولا
١٩٧ – جرمينال
تأليف أميل زولا
١٩٨ – ذات العيون الخضراء
تأليف ايرل ستانلى جاردنر
١٩٩ – الجيل
تأليف فتحى غانم
٢٠٠ – موعد مع الموت
تأليف أجاثا كريستى
٢٠١ – سليمان الحلبى « مسرحية »
تأليف ألفريد فرج

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الروايات من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المبتديان » بالقاهرة وقد نفدت جميعها حتى رقم ١٨٠

الأسعار

ثمن النسخة الواحدة (٨٠ مليما) بخلاف مصاريف البريد المسجل

اشترك في روايات الهلال

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقيــــة :	السيد نخلة سكاف
جـــــــدة :	السيد هاشم بن علي نحاس ص . ب ٤٩٣
البحـــــرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد صندوق البريد رقم ٢١
البــــرازيل :	Sr. Miguel Maccul Cury, R. 25 de Março, 994, Caixa Postal 7406 Sao Paulo, BRAZIL
ســنغافورة :	Ahmed Bin Mohammed Bin Samit Almaktab Attijari Asshargi, P.O. Box 2205 SINGAPORE
انجــــلترا :	Arabic Publications Distribution Bureau, 7, Bishopthorpe Road London S.E. 26, ENGLAND



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر يناير 2020 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

هذه الرواية

يقدم لنا مكسيم جوركى فى هذه الرواية الممتعة صورا نابضة بالحياة عن آلام البشرية، ممثلة فى الطبقات الفقيرة الكادحة .. الطبقات التى لم يسعدها الحظ بالعلم والثقافة والقدرة على مواجهة الحياة .

ان بيت بتروشكا الخمار هو رمز للبيئة التى ينمو فيها بعض المواطنين نموا غير طبيعى .. انهم جميعا فقراء ، جهلاء ، منحرفون .. انهم جميعا يخضعون لقانون واحد هو الفقر والجهل

وفى هذه البيئة الرهيبة نما الاصدقاء الثلاثة .. وكان الاول قد رحل من القرية الى المدينة ليشق طريقه فيها ، وكان الثانى ابن حداد قاتل لزوجته .. وكان الثالث شابا رقيقا ينظر الى الحياة دائما بمنظار أسود .. واحب الشبان الثلاثة ، ثلاث فتيات .. وأخذ القدر يحرك خيوط مصائر هؤلاء الستة ويطورها ثم يوجهها الى نهايات عجيبة يشوق القارىء متابعتها والتامل فيما تنطوى عليه من مفاجآت وعظات ..






المؤلف

* ولد مكسيم جوركى فى روسيا عام ١٨٦٨ واشتغل من اجل الرزق وهو لايزال صبيا

* فى كازان تعلم فى جامعة الحياة وبين صعاليك المجتمع وانغمس فى حياة الطبقة العاملة المضطهدة حينذاك

* نشر اول قصة قصيرة له فى مجلة كاكاز عام ١٨٩٢ ووقعها باسم مكسيم جوركى . واصبح معروفا فى الاوساط الاوربية بهذا الاسم ، اما اسمه الحقيقى، اليكسى بشكوف

* بعد نشر مجموعته القصصية الاولى فى عام ١٨٩٨ صار مشهورا ووالى نشر انتاجه الادبى الواقعى حتى اصبح من اعلام الادب الروسى المعاصر ..

Exclusive
For
www.ibtesama.com